شكري نصرالله

مذكرات قبل أوانها

شهادات حيّة في شخصيات

صائب سلام وريمون إده والياس سركيس



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شكري نصرالله

مذكرات قبل أوانها

شهادات حيّة في شخصيات
صائب سلام وريمون إدّه والياس سركيس

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠١

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: لينا مرعي

إهــداء

إلى زوجتي: إلهام - الصابرة الصامدة

وبناتي:

- جانين، التي كان الرئيس سلام والسيدة تميمة يدعوانها: جاكلين
- وتانيا
- وكريستين

شكري

مقدمة

ليس هذا الكتاب كتاب مذكرات بالمعنى المتعارف عليه. ولا هو كتاب ينشر أسراراً غير معروفة، لكنه يقع في منزلة بين المنزلتين: هو مذكرات بمعنى أنه سردٌ لأحداث وقعت فتتلقَّفها ذاكرتي ودفاتري الصغيرة. وهو أسرار من حيث أنه يتحدث عن وقائع وأعمال كانت في وقت من الأوقات أسراراً لا يجوز البوح بها.

لكن، يجب أن أبادر إلى القول إنني، لن آتي في هذا الكتاب على ذكر أي سرّ من الأسرار التي طلب أصحابها مني أن أحتفظ بها. فالأسرار هي الأحداث التي يقوم بها ناس مُعيّنون، ويشهد عليها ناس آخرون، وليس من حق الفريق الثاني أن يبوح بها إلّا إذا سمَحَ له الفريق الأول... وهذا ليس حالي على كل حال.

في ما يخصني شخصياً، فقد كتب الله لي أن أكون قريباً من بعض الشخصيات العامّة إلى درجةٍ جعلتني أتشرف بالوقوف على القليل من أسرارها وأعمالها، فكنتُ الصديق الوفي، والرفيق الأمين غاية الأمانة. والحقيقة أن هؤلاء الأصدقاء ـ وقد كانوا يَعُدّونني صديقاً حقاً ـ لم يمنحوني

ثقتهم إلا بعد تجارب عديدة. فأنا صحافي وهم سياسيون. وكثيراً ما كان هذا الواقع ينقلب إلى صراع مرير بيني وبين مهنتي، وبينهم وبين مهنتهم. فالصحافي، عادةً، لا يؤتمن على سرٍّ، ولا يُمنح ثقة عمياء خوفاً من أن تكون مهنته أكثر أهمية من صداقاته. والسياسي، عادةً، لا يبوح بأسراره كلها، بل بما يتلاءم مع أهدافه ومراميه. وكثيراً ما عرفنا سياسيين يشعروننا بأنهم باحوا بسرٍّ، أو بخبطةٍ صُحُفية، في حين أنهم كانوا يستعملوننا لتمرير ما يريدون تمريره لمنافسيهم، أو لمعارضيهم، أو حتى ـ أحياناً ـ لزوجاتهم.

وقد كتب الله لي، وهو القادر الوهّاب، أن أكون عند حسن ظن ودراية بعض هذه الشخصيات.. فمنحتني ثقة كاملة.

ولا أخفي عليكم أنني كنت أحتفظ لنفسي بدفتر صغير أُسجل عليه بعض ملاحظاتي، وكذلك بعض ما أسمع وأرى، على أمل أن يأتي يوم أتمكن فيه من نشرها عندما تصبح من حق الناس، ولا تؤذي أصحابها من بعيد أو من قريب.

● في هذا الدفتر مثلاً: ستون ساعة حوار هادئ ودافئ وساخن وحار، مع العماد ميشال عون، على مدى سبع سنوات متواصلة، وسوف يبدو مدهشاً أن هذه الساعات الطويلة كلها مسجَّلة بالصوت والصورة في أرشيف أجهزة الأمن الفرنسية لأن العماد عون، طوال إقامته في فرنسا، ضيفاً، ولاجئاً سياسياً، منذ ٢٨ آب ١٩٩١، كان يخضع

للتفتيش الدقيق، ثم للتسجيل الإلكتروني الفائق التطور، هو ومنزله وحيطان المنزل وسماؤه وهواؤه، وزواره وملابسهم، بل أحذيتهم أيضاً.

ومن المؤكّد أن هذه الأوراق الصغيرة ستبقى في جعبتي إلى أن يصبح نشرها خالياً من أي ضرر لفرنسا، أو للعماد، أو للبنان، أو للذين كلفوني إجراء هذا الحوار الطويل.

● وفي هذا الدفتر مثلاً: مُلخَّص، بسيط أحياناً، وطويل أحياناً، لعلاقة ورسائل وذكريات سياسية وإنسانية مع الرئيس الصديق أمين الجميل. وإذا كتب الله لي أن أُنجزها، فسوف يكتشف اللبنانيون، وخصوصاً خصومه، كم أن الرئيس الجميل رقيق، وحضاري، ومثقّف، وهادئ (ولكن فوق نار) ومظلوم.

● وفي هذا الدفتر مثلاً: قصة علاقتي بالأباتي شربل قسيس أثناء الحرب اللبنانية وبعدها. وكيف نجحتُ في ترتيب لقاء بينه وبين المرحوم المعلم كمال جنبلاط ـ وكيف أن المصادفة وحدها حالت دون هذا اللقاء، فارتضى الطرفان عدم تأجيله بل تحقيقه بين كمال بك وثلاثة من كبار كَهَنَة الكسليك آنذاك وهم: الأباتي بولس قزي، والأب (آنذاك) بولس نعمان. والأب (آنذاك) يوسف مونس. فقد صادف يوم اللقاء يوم اجتماع الجبهة اللبنانية بالرئيس سليمان فرنجية والمندوب الأميركي دين براون، وكان الأباتي قسيس رئيساً للجبهة، فلم يكن ممكناً أن يعتذر، وكان المعلم كمال

جنبلاط معلّماً فعلاً. فعندما اتصلت به كي أنقل له حراجة موقف الأباتي قسيس واقتراحه التأجيل أو إبقاء الموعد مع ثلاثة رهبان.. قال لي:

ـ لا تتكلم. فقد عرفت أن الجماعة سيلتقون غداً بدين براون وأنا جاهز لمقابلة الرهبان الثلاثة.

● وفي هذا الدفتر مثلاً: أخبار ومحطات ولقاءات وذكريات مشوقة مع زعماء وسياسيين كلّفوني اعداد مذكراتهم الشخصية، أو مراجعتها، أو كتابتها، كما حصل مع الرئيسين المغفور لهما صائب سلام وكاظم الخليل. وفي مذكراتهما مئات الاسرار والأعمال المجهولة، لكنني لا أسمح لنفسي أن أبوح بها ابداً. فهي لهما، وحدهما. ولهما فقط ولورثتهما، من بعدهما، يعود أمرُ نشرها أو عدم نشرها. وإذا كنت، في هذا الكتاب، سأتناول أحداثاً جرت مع هؤلاء الزعماء السياسيين وغيرهم، فينبغي أن أؤكد، منذ الآن، أن ما سيرد في هذا الكتاب، هو:

● إما رأيي ومطالعتي ورؤيتي واستنتاجي لبعض صفاتهم وعلاقتي بهم بشكل أو بآخر.

● وإمّا أعمال كلّفوني إيّاها، أو عرضتها عليهم فوافقوا أن يُسندوا إليّ شرف تنفيذها، فحصلت، أو فشلت، أو لاقت قبولاً ونجاحاً، أو أدت إلى اتجاه لم يكن مقصوداً.

وفي الحالتين، هي مطالعات ومحطات وأسرار تخصني

أكثر مما تخصهم، لكنها لا تؤذي أحداً، ولا تسبّب لأحد حَرَجاً. وهذا، بالذات، هو مقصدي.

على أنني سأذكر، أيضاً، بعض صفات هؤلاء الزعماء، وألقي على شخصياتهم أضواءً هي انعكاس مباشر لعلاقتي بهم وعلاقتهم بي، فتنير للقارئ صوراً قد يعرفها البعض وقد لا يعرفونها.

وسوف أكتفي، في هذا الكتاب، بسرد قصص ومحطات وأخبار مجهولة ـ أو مجهولٍ بعضُها ـ كنت فيها طرفاً مقبولاً في حياة كلٍّ من المرحومين:

● الرئيس الياس سركيس

● الرئيس صائب سلام

● العميد ريمون اده

وقد يبدو للبعض أن الكتابة، عن رجل أصبح في دار الحق، تشبه الصراخ في المطحنة: أي الصراخ الذي لا يسمعه أحد. أو ـ لنقل ـ إنها تشبه الاستشهاد بشاهد لا وجود له. وعندئذ، تصبح المذكرات عملاً غير علمي، أي: لا يستند إلى ركيزته الأساسية، وهي: الطرف الآخر. لكنني أؤكد أن هذه المحطّات والأسرار والأخبار التي سأحاول سردها بطريقة ودية، صحيحة مئة بالمئة ومستندة إلى تواريخ ثابتة، بالإضافة إلى أن معظم شهودها ما زالوا أحياء يرزقون أطال الله أعمارهم. وهي، في كل الحالات، أخبار طريفة،

ظريفة، خفيفة الدم رقيقة الظل. سريعة الهضم جعلتها جميعاً عربون شكر ووفاء لأرواح هؤلاء الزعماء الذين لا يجود الزمان علينا بكثير من أمثالهم. إنها «مذكرات قبل أوانها»، بل هي شهادة حية. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [قرآن كريم].

والله من وراء القصد.

شكري نصر الله

باريس في ٧ حزيران ٢٠٠٠

الفصل الأول

صائب بك سلام
والدي الذي لست ولَدَه

في الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٠ توفي رئيس الحكومة اللبنانية (الأسبق) والزعيم اللبناني المجلّي، صائب سلام عن ٩٥ عاماً. وكانت وفاته بعد ثلاثة أيام فقط من احتفال عائلته بعيد ميلاده الخامس والتسعين (ولد في ١٧ يناير ١٩٠٥).

وفي اليوم التالي لوفاته، كتبتُ عنه في صحيفة «الشرق الأوسط»، حيث أعمل.. السطور الآتية:

سوف تمر سنوات عدة قبل أن يقرأ اللبنانيون والعرب جميعاً قصة صائب سلام الحقيقية، بقلمه وذاكرته الحادة الرشيقة. فقد أعرب عن رغبته في ألا تنشر مذكراته ـ وما أغزرها وما أجملها ـ إلا «بعد عشر سنوات من وفاته». تمنى سلام ذلك في غداء كنا نتناوله وحدنا (أنا وهو وعقيلته السيدة تميمة) أثناء كتابة مذكراته التي استغرقت ست سنوات من العمل.

وكان رئيس تحرير «الشرق الأوسط» في عام ١٩٩٨،

الزميل عثمان العمير، قد سمح لي بالبقاء مع صائب بك إلى أن تنجز المذكرات التي، أنا وصائب بك، كنا بدأنا بتجميع معلوماتها وتواريخها ووثائقها قبل سنة من ذلك التاريخ.

ولن أسمح لنفسي الآن، وصائب بك في ذمة الله، أن أفصح عما في المذكرات من أسرار وخبايا شهدها القرن العشرون، لكنني أود أن أشير إلى ثوابت عرفتها في صائب بك عن قرب وتجربة ومحبة.

وكنت أشعر، وأتصرف معه، وكأنني ابنه الرابع الذي لم يولد من صلبه. وأشعر الآن أن واجبي يدفعني إلى التأكيد على حقيقة صائب سلام التي قد يعرفها الناس جميعاً، وقد يجهلون نتفاً منها في غاية الأهمية.

أول هذه الثوابت: أن الرئيس الراحل صائب سلام كان رجلاً في غاية التهذيب والخلق الراقي. وعلى عكس ما يتصور البعض من الذين عاصروه وهو السياسي الشديد المراس، والمقاتل الشديد البأس... فقد كان رحمه الله عفيف اللسان، نقي السريرة.. لا تخرج من فمه كلمة نابية، ولا شطح غضبه مرة واحدة عن الطبيعة.

وثاني هذه الثوابت، أن صائب بك كان لبنانياً عربياً صافياً. لم يتعصب لمذهب ولا لطائفة ولا لحزب. وطوال السنوات الخمس والعشرين التي عرفته وراقبت حياته فيها من أقرب المسافات، لم أسمع منه كلمة واحدة تمس بمذهب أو بعقيدة لا في الدين ولا في السياسة. وكان يقول دائماً عبارته المشهورة: «اخواننا المسيحيين» (بتسكين الميم).

أما في صفاء لبنانيته فكان رائعاً وعظيماً. وأسمح لنفسي هنا، وهو يغادرنا إلى دار الحق، أن أشهد أن صائب سلام هو الذي أنقذ مسيحيي بيروت الغربية من الانتقام في خريف ١٩٨٢.

ففي ١٥/٩/١٩٨٢ وقعت مذبحة صبرا وشاتيلا، وقُتل أكثر من ١٧٠٠ فلسطيني ولبناني بطريقة وحشية. وفي اليوم التالي قرر بعض زعماء بيروت الانتقام للمذبحة متهمين الكتائب والقوات المسيحية بها. وفي منزل صائب بك قال عدد منهم إنهم لن يحولوا دون انتقام بيروت من هذا العمل الوحشي.

وأدرك صائب سلام أن الأمر سيعني مذبحة جديدة. وفي بيروت الغربية يومها أكثر من ٢٥ ألف مسيحي. وبسرعة خاطر ونقاء ضمير لجأ صائب بك إلى الدهاء. فطلب التلفزيون اللبناني كي يدلي له بتصريح، وقال لزواره إنه يريد أن يُجري مكالمة هاتفية مع واشنطن ليعرف منها من نفذ مذبحة صبرا وشاتيلا. ودخل إلى مكتبه وراح يتحدث بالانجليزية مع نفسه لمدة خمس دقائق أو أكثر. ولما أبلغوه أن التلفزيون وصل إلى المنزل. خرج إلى زواره وقال لهم لقد تبلغت الآن من أكبر المراجع الأميركية أن الكتائب ليسوا مسؤولين عن المذبحة. ودخل التلفزيون إلى الصالون، فضرب صائب بك يده على صدره وأعلن بمحبة وجرأة قائلاً: انني أشهد ببراءة الكتائب والمسيحيين من هذه

المذبحة. فأنقذ بيروت وأنقذ مئات وربما آلاف الناس من الانتقام.

وثالث الثوابت: أن صائب بك كان يرى لبنان عربياً واللبنانيين جناحين: جناح مسيحي وجناح مسلم. وكان يشعر بالأسى والعذاب إذا جار جناح على جناح. وكان يقول: هناك لبنان واحد لا لبنانان، أي ليس هناك لبنان مسيحي ولبنان مسلم، بل لبنان واحد أحد عربي نقي.

ورابع الثوابت: ان صائب سلام كان حليماً ومسامحاً ومتسامحاً، خصوصاً داخل العائلة اللبنانية. وفي وقت من الأوقات في منتصف عام ١٩٥٨ كان صائب سلام زعيماً لثورة مسلحة لبنانية ضد الرئيس كميل شمعون. وعندما انتهت الحرب أطلق شعاره المعروف: لا غالب ولا مغلوب، لأنه لم يكن يريد لجناح أن ينتصر على جناح على الرغم من أن لبنان كله كان يدين له بالولاء والطاعة لخمسة شهور متوالية على الأقل.

وخامس الثوابت: أن صائب سلام كان يشعر ويتصرف على أساس أنه عندما يكون رئيساً للوزراء، فهو يمثل المسلمين اللبنانيين تماماً مثلما رئيس الجمهورية يمثل الموارنة والمسيحيين. وكانت نظرته بالتساوي المطلق مع رئيس الجمهورية تجعله عرضة لخلافات دائمة مع الرؤساء، لكنه أبداً لم يتراجع. وأبداً لم يترك للرئيس أن يشعر أو أن يتصرف على أساس أنه أكبر حجماً أو أكثر تمثيلاً للبنانيين منه. وبمقدار ما كان لبنانياً عربياً كان مسلماً عربياً يشعر في

قرارة نفسه أن الميثاق الذي ارتضاه اللبنانيون هو اقتسام محبة لبنان وخدمته فلا فضل لمسيحي على مسلم ولا لمسلم على مسيحي. وعندما كان يصطدم ـ بسبب هذه النظرة ـ بالرؤساء، كان يفضل الاستقالة.. أو الابتعاد عن الأضواء لأنه كان يعتقد أن تأجيج الخلاف يؤدي إلى صدام لا يريده ولا يرى فيه سوى ضرر للبنان.

وسادس هذه الثوابت، ان صائب بك كان والداً كبيراً وزوجاً قل نظيره. وكان الحب شعاره وديدنه. وقد كنت أشهد معاملته لأبنائه وأحفاده والسيدة زوجته فيملأني شعور بالفرح والسعادة. ولم أسمع ولم أقرأ عن رجل حمل مثل مشاعره حيال زوجته السيدة تميمة، فقد كانت الزوجة والصديقة والأم والأخت معاً، وخصوصاً الأم الآمرة الناهية التي لا تنزل كلمتها على الأرض أبداً. ولعلني لا أقترف ذنباً إذا زعمت أن صائب بك كان مديناً بحياته الهانئة الطويلة لاثنين: الله تعالى.. والسيدة تميمة التي كانت تخضعه لنظام صارم في الأكل والشرب كان يطالنا جميعاً. وفي السهر والتعامل مع الآخرين منذ أن بلغ الثمانين. لم تكن تحرمه من أكلة أو شهوة أكل، يطلب الخروف المحشي فيحضر الخروف المحشي، لكن الطباخ الخاص كان يعرف تماماً أن الدهن ممنوع في منزل صائب بك، والسمن ممنوع، والملح ممنوع، وزيت الزيتون ممنوع، والزيتون ممنوع إلا لثلاث حبات فقط، فإذا أكلها كان به، وإذا أراد غيرها لم يكن ذلك مسموحاً أبداً.

وسابع هذه الثوابت: القراءة الدائمة والتعليق على كل ما يقرأ ويسمع. وكنا نخجل أمامه عندما يبادرنا بالقول انه قرأ الكتاب الفلاني، وأنهى المقال الفلاني، ونحن نصغي إليه، ونعجب كيف وصلت يداه إليهما قبل أن نراهما.

وذات يوم، أنهى قراءة كتاب «البيريسترويكا» للرئيس الروسي ميخائيل جورباتشوف فبعث به إلي وقال:

ـ أذكر هذا الاسم جيداً. ان جورباتشوف سوف يغير مجرى التاريخ.

وثامن هذه الثوابت: ان صائب سلام كان داخل كل الأحداث التي شهدها لبنان منذ الانتداب الفرنسي حتى مؤتمر الطائف ووثيقة الوفاق الأهلي. في بيته رسم اللبنانيون العلم اللبناني الاستقلالي (رغم الخلاف بين بعض اللبنانيين حول هذا الموضوع) وفي بيته تشكلت حكومة الظل الاستقلالية برئاسته، استعداداً لما قد يحدث للحكومة المسجونة في سجن الانتداب الفرنسي في راشيا.

وكان صائب سلام الحل الأمثل لنجاة الرئيس الأول للجمهورية بشارة الخوري من الثورة الشعبية التي قامت ضده، فكلفه الرئيس برئاسة الحكومة لكنه استقال عندما علم أن بقاء الرئيس الخوري لم يعد ممكناً.

وكان صائب سلام رئيساً للحكومة في أيام الرئيس كميل شمعون. ثم في رئاسة الرئيس فؤاد شهاب. وفي رئاسة سليمان فرنجية صديق العمر والطفولة.

وأثناء احتدام الخلاف اللبناني ـ اللبناني في أيام الرئيس أمين الجميل، كان الأصدقاء يرشحونه لرئاسة الحكومة لإخراج لبنان من محنته.

في مؤتمر جنيف اللبناني نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣ كان صائب سلام يشكل قطب المصالحة الوطنية والرؤيا السديدة.

وفي مؤتمر لوزان اللبناني ١٢/ ٣/ ١٩٨٤ كان صائب سلام بمثابة الأب الروحي الذي يقف بين الأطراف المتصارعة على مسافة واحدة من كل منهم.

وفي مؤتمر الطائف للوفاق الوطني اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٩ ألقى عبارته المشهورة «ممنوع الفشل» وفي نهاية المؤتمر في ٢٢/ ١٠/ ١٩٨٩ قال بالتليفون:

ـ الآن.. بدأ لبنان مسيرة التفهم والتفاهم الحقيقية، وفتحنا الباب لمسيرة الإنقاذ.

في ٤/ ١١/ ١٩٨٩ أطلق صائب بك نداء من جنيف إلى النواب اللبنانيين لانتخاب رئيس جديد للجمهورية. وفي الخامس منه غادر جنيف إلى مطار القليعات حيث جرى انتخاب الرئيس رينيه معوض رئيساً للجمهورية.

في ٢٢ نوفمبر اغتيل الرئيس المنتخب، فأعلن صائب سلام من جنيف أن على النواب اللبنانيين أن ينتخبوا فوراً رئيساً جديداً لتطويق مؤامرة الفراغ الدستوري. وهكذا كان.

في منتصف عام ١٩٩٤ قال لي الرئيس سلام وأنا في منزله في جنيف:

ـ لقد قررت أن أعود إلى بيروت.

وقلت له:

ـ عسى خيراً إن شاء الله.

وقال:

ـ أريد أن أقضي بقية أيامي في بيروت. لا أريد أن أموت في جنيف فيضعون جثتي في البرّاد إلى أن يأتي دورها.

وقلت له:

ـ إنني أفهمك جيداً. لكن ليس الآن وقت الكلام عن هذا الموضوع. دعنا نحتفل بإنجاز المذكرات والكتب الأربعة الأخرى.

وعاد إلى بيروت، فرأى بأم العين كيف أن لبنان كله هبّ لتحيته ولقائه، تماماً مثلما هبّ كله أمس لوداعه.

صائب سلام يُوَدِّعنا اليوم، وهو أرزةٌ من أرزات لبنان الخالدات. رحمه الله.

* * *

كيف تعرفت عليه

لا أذكر مناسبة معينة تعرفت فيها على الرئيس صائب سلام، رئيس الحكومة اللبنانية لست مرات متفرقة. لكنني كنت اراه وأجتمع إليه في مناسبات صُحُفية. شأني شأن مئات الزملاء الذين يلتقون المسؤولين ويقابلونهم، ويستصرحونهم، وأحياناً ينفردون بمقابلات خاصة معهم. غير أنني أذكر أن الرئيس صائب سلام زارنا في مجلة «الحوادث» صيف العام ١٩٧٥، بعد عدة شهور على اندلاع الحرب اللبنانية، وكنت سكرتيراً للتحرير في هذه المجلة التي كانت قد تعرضت لحادث تخريبي أدى إلى تدمير مطابعها تدميراً تاماً. وكان رأي صاحبها ورئيس تحريرها المرحوم سليم اللوزي أن الانفجار الذي وقع في الطابق السفلي من المبنى، حيث المطابع وورشة الانتاج، قامت به عناصر عربية معيَّنة، انتقاماً من سليم اللوزي بالذات، الذي كان بدأ سلسلة مقالات يتهم فيها جهات عربية بأنها وراء توتير الوضع الأمني في لبنان. وبعد نهاية الحرب اللبنانية الأولى (١٩٧٥ ـ ١٩٧٨)، رحل اللوزي و«الحوادث» إلى لندن وأصدرها هناك، وزار لبنان، وخطف وقتل فيه.

وعندما وصل الرئيس سلام لتقديم عزائه بالكارثة التي حلّت بالمجلة، اتصل الأستاذ اللوزي برؤساء الأقسام ثم بباقي الزملاء والفنيين للترحيب بالرئيس الضيف. وصعدنا إلى

مكتب اللوزي وكان يتألف من حوالى ١٥٠ متراً مربعاً من الأناقة والفخامة والجمال. . فبدأ بتقديمنا للرئيس سلام، على رغم أن بيننا من يعرفه ويتبادل الود والصداقة معه، وتحلقنا حوله فيما راح يمتدح خط «الحوادث» السياسي، ونهجها الصحفي، ومحرريها والقائمين عليها باعتبار أنها مجلة العرب الأولى، في تلك الحقبة.

وفيما كنا نتناول معه القهوة، قال اللوزي متابعاً حديثاً شيّقاً:

ـ . . . والمشكلة يا دولة الرئيس أننا نتعرض شخصياً في بعض الأحيان لتهديدات ومضايقات لا نملك أن نردها عن أنفسنا. . وإلّا فإن كل واحد منا يلزمه مدفع، أو فريق من المقاتلين الرماة. وقبل أسبوع، كنت أشاهد فيلماً سينمائياً في «الحمرا». . فاضطررت لمصاحبة مرافقين مسلحين.

وقال الرئيس سلام:

ـ إن البلد كله يعيش حالة شبيهة بحالتكم. وعلى كل حال، حاولوا أن تحموا أنفسكم. ومن يقدر منكم على حمل السلاح فليتسلح.

ووجدت نفسي أطرح السؤال الآتي:

ـ لكن التسلح سيكون أمراً خطيراً يا دولة الرئيس. فالسلاح من دون رخصة ممنوع. ومعظمنا لا يتقن حمل السلاح أو استخدامه. وفي هذه الحال يكون السلاح مضرًّا، بل خطيراً كما حصل مع مرافقي الأستاذ اللوزي قبل أيام.

وقال الرئيس سلام مازحاً:

ـ تعلموا حمل السلاح وتعلموا استعماله. أما الرخصة، فإذا اعترضكم أحد، فقولوا له إن صائب سلام سمح لنا بالتسلّح.

وضحكنا جميعاً، وودعنا الرئيس سلام بمثل ما استقبلناه به من محبة واحترام، واعجاب بشخصيته الفذة.

بعد هذه الحادثة، والحوار القصير الذي جرى بيني وبين الرئيس سلام، أخذت أحاوره كلما التقيت به، وأحاول جاهداً أن ألفته إلى رأيي أو اعتراضي، أو موافقتي. وباختصار، كنت أتعمد أن أتقرب من هذا الرجل الذي كان يسحرني بفطنته وصدقه مع نفسه، وأريحيته وكبريائه وقدرته على اختصار العلاقات اللبنانية ـ اللبنانية بأقوال قصيرة وجميلة تلخص كل شيء. فهو أول من قال إن حرب ١٩٥٨ يجب أن تنتهي بـ «لا غالب ولا مغلوب». وهو صاحب شعار «لبنان واحد لا لبنانان». وهو القائل: «لبنان لا يعيش إلا بجناحين». وهو صاحب شعار «تحطيم الدكتلو». بل هو أول من حطَّمه.

لقد كان صائب بك ملكاً من ملوك الحرية. وفيما بعد اكتشفت أنه ملك من ملوك الانفتاح الذي لم يكن له مثيل في بلادنا في تلك الأيام.

وشيئاً فشيئاً، أصبحت قريباً منه، وصار يعرفني من بين مئة صحافي، وأحياناً يخصني بكلمة أو بهمسة أو بسؤال، فكنت أترنح اختيالاً وطرباً.

وأخيراً تمكنت من نيل ثقته، وقد كان ذلك عملاً متعباً في أي حال، لأن صائب بك سيد من أسياد التحفظ وعدم كشف أوراقه لأحد. وحالما أيقنت أنني دخلت ضمن دائرته الواسعة، خضت معه مشروع لقاء بالرئيس المنتخب آنذاك (١٩٧٦) الياس سركيس. ولشدة خصومتهما بدا هذا المشروع عملاً في غاية الأهمية أو ضرباً من الجنون. وقد أثلج صدري أن كلا الرئيسين سركيس وسلام أُعجبا بالفكرة وأيّداها من حيث المبدأ.

لكن اللقاء تعرقل في نهاية الأمر. (وقد أتيت على ذكر هذه القصة في مكان آخر من هذا الكتاب). وأدركت أن وجودي في دائرة الرئيس سلام الواسعة، لن يؤدي إلى النتائج التي أتوخاها. ولا بدّ لي أن أحاول الدخول إلى دائرته الضيّقة.

في مطلع ١٩٧٧ تركت بيروت إلى باريس والتحقت بالزميل نبيل خوري كي نُصدر مجلة «المستقبل». فأصدرناها، وخرجت إلى النور مجلة لم يكن لها مثيل في طول البلاد العربية وعرضها. لا من حيث الشكل الحلو، ولا من حيث المضمون الذي أردناه أن يتصف بالأمانة والعروبة والصدق واحترام مشاعر وخصوصيات الناس حكاماً ومحكومين.

وكان الرئيس سلام يمر بباريس مرتين على الأقل في العام الواحد. مرةً قادماً من بيروت إلى الولايات المتحدة لإجراء كشف عام على صحته، ومرةً عائداً من الولايات

المتحدة إلى بيروت. وفي الذهاب والإياب كنت أزوره وأجلس معه ساعات طوالاً، وأتقرب منه، وأحاول أن أكسب المزيد من ثقته. ولسبب من الأسباب أصبح هو أيضاً يبادلني الشعور نفسه، فإذا أراد أن يطلق تصريحاً فإنه قبل أن يدلي به، يضعني في صورته. وإذا أراد أن يقابل صحافياً يسألني عنه أو يسألني عن المسائل التي يمكن أن يطرحها..

وهكذا أصبحنا صديقين. وتأكد لي أنني دخلت في حلقته الخاصة الضيّقة، وللحال اقترحت عليه أن يكتب مذكراته، فقد كان عندما يتحدث عن الماضي، يكاد أن يكون آلة تسجيل بالصوت والصورة والرؤيا الثاقبة. وقد أدهشني أن يكون على سطح الأرض إنسان بهذه الدقة في استذكار تفاصيل التفاصيل، حتى ولو كانت الذكرى تعود إلى مطلع القرن.. فهو، مثلاً، يتذكر زقاق البلاط، وكان ابن ثلاث سنوات، بلاطة بلاطة، وبيتاً بيتاً وعائلة عائلة بشكل مذهل فعلاً. وعندما كتبنا مذكراته معاً في وقت لاحق، أذهلني كيف أنه كان ما يزال يتذكر لباس هنري فرعون من «البابوش إلى الطربوش». وقد تملكني شعور قوي بضرورة أن أضغط عليه كي يتذكر. وقلت له:

ـ أنا قادر يا صائب بك أن أنشر مذكراتك في «المستقبل» على نحو أسبوعي، أو نصف شهري، أو كما تشاء. وأنا مستعد أن أساعدك عليها سواء بالتسجيل، أو بالنقل، أو بالإملاء... لكن: حرام أن تترك الأيام تجري ولا تكتب مذكراتك.

وقال صائب بك:

ـ لقد بدأ صحافي صديق لي، هو بديع سربيه، الإعداد لكتابة هذه المذكرات لكن وقته لم يسمح، ووقتي لم يكن مناسباً. والرجل الآن في القاهرة منذ اندلاع الحرب اللبنانية، ولم أعد أعرف عن الموضوع شيئاً.

وقلت للرئيس سلام:

ـ فلنجرب يا دولة الرئيس.

وقال:

ـ خيراً إن شاء الله. سنرى ما يمكن أن نفعله في المستقبل.

ولم أعد أعيد عليه الكرّة. فقد أدركت أنه ليس في وارد الكتابة الآن.

في مطلع العام ١٩٨٢، كنت أحسب نفسي واحداً من قلة من الصحافيين يعرفهم صائب بك معرفة حقيقية، ويزورهم ويزورونه على المستوى العائلي الحميم. وأذكر أنني اصطحبت عشرات الضيوف والزملاء إلى بيته في فرنسا، ثم في جنيف. وكان يستقبلهم ويحادثهم بصراحته وانفتاحه المعروفين، لمجرد أن أكون إلى جانبهم وأوصي بهم. وكان هذا يبعث في نفسي شعوراً بالاعتزاز والغبطة. فقد أصبحت واحداً من أهل البيت، وكان الرئيس سلام يحبني إلى درجة أنه كان يردد لبعض زواره على مسمع مني.

ـ عندي ثلاثة أولاد وشكري رابعهم.

وقد كنت أقفز في داخلي من الفرح عندما يتلفظ بمثل هذه الكلمات. وأصبح أولاده جميعاً، إناثاً وذكوراً، يعتبرونني واحداً منهم، أتحدث في شؤونهم تماماً كأخ منهم. وأما السيدة تميمة، فكانت أمنا جميعاً بمن فينا صائب بك الذي لم أسمع ولم أرَ ولم أقرأ عن رجل يحمل مثل مشاعره لزوجته السيدة تميمة. فقد كانت الزوجة والصديقة والأخت والأم معاً... وخصوصاً الأم الآمرة الناهية التي لا تنزل كلمتها إلى الأرض أبداً. ولعلّي لا أقترف ذنباً إذا قلت إن بقاء صائب بك على قيد الحياة قرناً كاملاً، يتمتع بصحة كصحة الأطفال، عائدٌ إلى اثنين: الله تعالى، والسيدة تميمة، التي كانت تخضعه لنظام صارم في الأكل والشرب والسهر والتعامل مع الآخرين منذ أن بلغ الثمانين. ومن أغرب ما اكتشفته في السيدة تميمة أنها لا تؤمن بريجيم الأطباء بالمعنى الحرفي للكلمة، بل تؤمن وتفعل بما تعتقد أنه أقرب إلى النفس البشرية الطمّاعة بالمزيد من الطعام والكثير من الأكلات الشهية.

فإذا أراد صائب بك أن يأكل الخروف المحشي.. فإن السيدة تميمة لا تحرمه من الخروف المحشي. لكن أحمد طباخ العائلة، يعرف واجباته تماماً:

فالدهن ممنوع في بيت صائب بك،

والسمنة ممنوعة،

والملح ممنوع،

وزيت الزيتون ممنوع.

وما عدا ذلك، كل شيء مسموح، وله مكان ووجود. فالسلطة تصنع من الخس والخضار، وتملّح بقليل من عصير الليمون الحامض، وتذوّق بقليل من الزيت النباتي، وأحياناً من الزيت الخاص بتسهيل المعدة.

والخروف المحشي مسموح، لكن الفخذ فقط هو الذي يتم حشوه بالرز والصنوبر، ولكن بعد أن يُسْتأصل منه كل عرق أبيض. وطبعاً، من دون ملح وتوابل حادة. وفي ما يخص هذه الأكلة بالذات، فقد كنت أشتهيها فعلاً لأنها غريبة وطيبة المذاق. واسمها لدى بعض السوريين «بشميسكات» وهي كلمة تركية تعني الفخذ المحشي. وعندما كنت أزورهم في البيت كانت السيدة تميمة توصي أحمد بإعدادها فآكلها كما لا أحد.

وكانت السيدة تميمة تضع أمام الرئيس سلام أربع أو خمس حبات زيتون.. فإذا أكلها فصحةً وعافية. وإذا لم يأكلها فلا بأس. وأما إذا أحبّها وطلب المزيد، فقد كان المزيد مستحيلاً. وكان الرئيس يعرف ذلك جيداً، ولكنه كان في كل مرة يستعطف السيدة تميمة، ويتضرع إليها طالباً حبة واحدة، أو حتى، أحياناً، نصف الطلب، ولكن الماما تميمة لم تكن لتصغي أو تخضع للاستعطاف.

كل مساء، في تمام السابعة تماماً، وقبل العشاء بنصف

ساعة تحضر السيدة تميمة مائدةً للرئيس تقدم له في بدايتها حبات من «القضامة» الشامية غير المملّحة التي نسميها مغبّرة، وحبات معدودة من الزيتون لم يكن مسموحا لا للرئيس، ولا لأحد من وسطائه الضيوف أن يزيدوها حبة واحدة. وكان الرئيس يشعر بقليل من النرفزة. لكن سرعان ما يهدأ لأنه يعرف أن الماما تميمة تريد مصلحته ومصلحته فوق الجميع.

أكلة نيفا

ما عدا ذلك، لم يكن الرئيس سلام محروماً من شيء مهما كان وأيًا كان حتى ولو كان الطلب «رأس نيفا». ولرأس «النيفا» قصة حدثت معي شخصياً، هاكم تفاصيلها، بعد أن أحدثكم عنها وأصفها للذين لا يعرفونها.

النيفا هي رأس خروف مشوي على نار هادئة جداً، بعد تنظيفه وتقشيره بالماء والحامض والقرفة والبهارات لأكثر من عشرين مرة. وعندما ينضج يصبح رأس النيفا أكلة لا تكاد تضاهى في العالم كله، وفي أيام الشباب كنا نأكلها في المطاعم الأرمنية في بيروت حيث كان الأرمن يجيدونها كالأتراك، وأفضل من الأتراك، على رغم ما بينهما من عداء. وبما أنني أكول وشَرِه وذواقة، وطبّاخ ماهر لا أجارى في أبناء جيلي، أعترف بأن الأرمن أضافوا إلى المطبخ اللبناني النكهة الأرمنية التي لا هي بهارات الهند وخليج عمان، ولا هي مزيج من الحامض والحلو، كما في الخليج العربي، وهو مزيج مستورد من الهند أيضاً، ولا هي دهون وزنخة المطعم التركي، بل هي وجبة تركية مطعمة بنكهة أرمنية تضاعف القابلية للطعام وتجعل اللسان كأنه قطعة من الزبدة الذائبة.

أثناء كتابة مذكرات صائب بك، كنت أستقل سيارتي من باريس إلى جنيف مرة أو مرتين في الشهر. وكان الرئيس

سلام يستضيفني في أفخم فنادق جنيف، فأفتح النافذة، فأطلّ على بحيرتها الرائعة فأشتهي أن أكون غنياً كي أعيش وأموت إلى جانبها.

وحالما أصل إلى الفندق، يكون الظهر قد قارب، فأغسل وجهي وأتصل تلفونياً ببيت الرئيس فتقول السيدة تميمة:

- الحمد لله على السلامة، متى وصلت؟

فأقول:

- للتو، منذ عشر دقائق.

فتقول:

- وهل كان المشوار متبعاً؟

فأقول:

- لا، والحمد لله

فتقول:

- وهامو؟ والبنات؟ (وهامو هي زوجتي إلهام، ندلّعها بـ: هامو).

فأقول:

- كلهنّ بخير، يهدينكم السلام.

فتقول:

- نحن إذن بانتظارك على الغداء.

فأستقل سيارتي، وأصعد إليهما، فنجلس قليلاً، بل كثيراً. وأخضع لأسئلة لا تحصى من الرئيس والسيدة تميمة، عن العائلة، والزوجة، والبنات ومدارسهن، والشغل، والكتابة، وهموم الدنيا.. إلى آخره.

ونقوم إلى الغداء. وبعد الغداء فوراً، يغسل الرئيس سلام يديه ويذهب إلى قيلولته. وأما السيدة تميمة فتبقى في الصالون، تقرأ أو تتفرج على التلفزيون لكنها لا تنام بعد الظهر لأنها تعتقد أن «نومة بعد الظهر تفسد نوم الليل».

وقد جرت العادة، بل ان السيدة تميمة أجْرتها، أن تطرح عليّ، حالما أصل إلى جنيف، عدداً من الأسئلة الضرورية:

ـ ماذا تريد أن تتعشى الليلة؟

ـ هل تشعر أنك تحمل وزناً زائداً؟

ـ هل ترغب أن تأكل على ذوقك، أم على ما نرتبه لصائب ولك؟

وكنت أجيبها كواحد من العائلة:

ـ سأتعشى كما تريدين.

وبعد العشاء تسألني:

ـ ماذا تريد على الغداء غداً؟

فأطلب ما أريد. وفي كثير من الأحيان كنت أطلب من السيدة تميمة أن تساعدني على تخفيف وزني ما دمت

عندهم. ففي باريس لا تملك زوجتي قدرات السيدة تميمة على منع الدهون والشحوم والمعاليق والقصبة النيئة، إلى آخره.

وكان الرئيس سلام يعرف أنني ما دمت في ضيافتهم، فإن السؤال يتوجه إليّ دائماً:

ـ ماذا تريد أن تتغدّى، وماذا تريد أن تتعشى، إلى آخره.

وذات مساء، كنا ثلاثتنا على العشاء، فاضطرت سيدة البيت لترك رأس الطاولة لأمرٍ ما.. فسارع صائب بك للقول:

ـ أُطلب نيفا، غداً

وعادت السيدة تميمة وتعشينا، وذهبنا إلى الصالون نشرب القهوة العربية ونجلس قليلاً حيث يُقلِّب الرئيس صحف النهار، فيختار ما يريد قراءته، أو يختار ما ليس للقراءة. ويرفع رجليه على كرسي خاصة عملاً بإشارة الطبيب. أما السيدة تميمة وأنا، فنتحدث في أمور كثيرة ريثما يصبح الرئيس جاهزاً للحوار معنا.

وسألتني السيدة تميمة:

ـ ماذا تريد غداءك غداً؟

فقلت على الفور:

ـ نيفا، إذا لم يكن ذلك يزعجك، فقد اشتهيت رأساً من النيفا.

واندهشت السيدة تميمة اندهاشاً لم أرَ مثله فيها من قبل. وسرعان ما خبّأت دهشتها ونظرت إليّ نظرة حادة وقالت:

ـ هذا طلبك أنت أم طلب صائب؟

فقلت:

ـ أبداً. إنه شهوتي أنا. ولا دخل لصائب بك به. وعلى كل حال، فأنا لا أصرّ عليه.

فقالت:

ـ سيحضر رأس النيفا غداً. تِكْرَم عينك.

وأدركتُ للحال أنني لا بدّ ارتكبتُ خطأً ما، وحاولتُ أن أقول شيئاً، لكن السيدة تميمة فهمت مقصدي تماماً فقالت:

ـ اسمع يا ابني. أنا لا أحب النيفا ولا أطيقها، ولا آكلها، ولا أريد أن آكلها. والبيت هنا وأولادي يعرفون ذلك تماماً. ولذلك سألتك إذا كان صائب هو الذي وراء الطلب. وعلى كل حال، سأطلب من أحمد أن يحضّر لكما النيفا، لكن يجب أن تعلم أنني سأترك المنزل غداً... أثناء شراء النيفا وصناعتها وطبخها وأكلها لأنني لا أطيقها. وسأعود إلى البيت بعد أن يكون أحمد والبنات قد نظفوا المطبخ تماماً. ووصيتي إليك ألّا تعطي صائب من حصتك إذا طلب منك ذلك.

وشعرت بذنب لا يُطاق، وحاولت أن أخرج من هذه الأزمة لكنني لم أكن أبداً مستعداً للبوح للسيدة تميمة بأن

صائب بك هو الذي طلب النيفا وليس أنا، على رغم أنني كنت أتمنى لو أنني تذكرتها قبله، فلم يكن في علمي أن هناك أملاً بأكلة نيفا في جنيف بالذات.

صباح اليوم التالي، في التاسعة تماماً كنت أقرع الجرس في منزل صائب بك كي نستأنف كتابة المذكرات. ولم تكن السيدة تميمة في المنزل، وكنت أعرف ذلك. وفي الثانية عشرة، جاءت مدبّرة المنزل إلينا في المكتب وقالت:

ـ الغداء جاهز يا سيدي.

فقال صائب بك:

ـ قم بنا. اليوم يوم النيفا، وتميمة غابت عن البيت لأنها لا تطيق رؤيتها، وسوف يسمح لنا غيابها أن نأخذ راحتنا.

وقمنا إلى الطاولة. وجاءت النيفا. رأس للرئيس سلام، ورأس لي. والحقيقة أنني فوجئت بنيفا جنيف. فهي لم تكن كما تعوّدت أن أراها وآكلها في برج حمود، أو في الجميّزة، لا سيما وأن رأس نيفا جنيف كان قطعة واحدة مغلقة وغير مقسومة إلى قسمين. وحرت في أمري: إذا تركت الرأس مصيبة، وإذا أكلته مصيبتان. وكان الرئيس سلام يراقبني ويرقب حركاتي، فقال:

ـ هاه. ما بك؟ لعلك لا تحب النيفا؟

فقلت:

ـ بالعكس. أحبها وأحبها، لكنني لست متعودًا عليها بهذا الشكل.

وعرض الرئيس أن أطلب شيئاً آخر. فرفضت. وأخيراً قال مازحاً بلهجته البيروتية العذبة.

ـ هل تبيعني رأسك؟

فقلت:

ـ لا، لن أبيعه.

فقال:

ـ هل ستأكله؟

فقلت:

ـ لا.. لا أظن أنني سآكله

فقال:

ـ طيب. بعني العينين فقط.

فوافقت شرط ألّا يذكر ذلك للسيدة تميمة.

ورفعت الخادمة الغداء، وعدتُ إلى الفندق خاوي المعدة. وفي المساء التقيت السيدة تميمة، وكانت قد علمت بتفاصيل ما جرى على الغداء. وأخيراً قالت لي:

ـ أريد فقط أن أذكِّرك بأنني عرفت أن صائب هو الذي أراد هذه الأكلة. فعسى أن تعيش وتاكل غيرها.

* * *

بين الرئيس الجميل والحريري

كانت أيام جنيف، وكتابة مذكرات الرئيس سلام أجمل أيام حياتي، وأغزرها تجربة وعلماً. وكان الرئيس سلام قد أدخلني إلى قلبه وعواطفه. وكان مستعداً أن يلبي لي أي طلب مهما كان شكله وحجمه ومصاعبه. وكنت، من جهتي، أصغي إليه، وأفهم منه ما يريد وما لا يريد. بل لقد كان يضعني أمامه كالتلميذ الكسول، ويعلِّمني كيف أتكلم، وكيف أسمع، وكيف آكل وأشرب. وكيف أدخن السيجار. وكيف وكيف وكيف إلى ما لا نهاية.

وذات مرة قال لي، بعد أن أدرك أنني ثرثار:

ـ هل تعلم أن فن الاستماع يفوق فن الحديث؟

وقلت له:

ـ وهل أنا مستمع عاطل؟

فقال:

ـ لا، لست مستمعاً عاطلاً، ولكنك أسوأ من ذلك. إنك تدخل على محدثك قبل أن ينهي كلامه. فكيف يمكن...

فقلت مقاطعاً:

ـ لكنني يا صائب بك...

فقاطعني قائلاً:

ـ هل رأيت؟ لقد انتزعت الكلام مني ولم تترك لي فرصة

أن أُنهي جملتي. فقد أردتُ أن أقول لك إنه يستحيل عليك أن تجيب عن شيء قبل أن تسمعه حتى النهاية. فحاول أن تكون مستمعاً جيداً لأن المستمع الجيد أهم من المتحدث الجيد.

وفي مناسبة أخرى قال لي ونحن على طاولة الطعام هو والسيدة تميمة معنا:

ـ هل تستطيع أن تفسِّر لي لماذا تلحس إصبعك وأنت تأكل؟

فقلت له:

ـ لأنني أحب الطعام إلى درجة المثل المصري الذي يقول إن هذه الأكلة شهية إلى درجة أن «تاكل صوابعك وراها» فقال:

ـ ما دام أن الشوكة في يدك اليسرى، والسكين في يدك اليمنى، فكيف يصل الطعام إلى أصابعك كي تأكلها؟

* * *

نعود الآن... إلى الأيام الأولى من علاقتي بالرئيس المرحوم صائب سلام.

وكنت ذكرت أنه كان يحسبني واحداً من أبنائه. وكان هذا يجعلني أزداد به ولعاً ومحبة واحتراماً. لكن الأيام كانت تخبئ لي مزيداً من الحظ مع هذا الصديق الحنون صائب سلام.

* * *

في ٢١ سبتمبر ١٩٨٢ تمّ انتخاب الشيخ أمين الجميل رئيساً للجمهورية خلفاً لأخيه الرئيس المنتخب بشير الجميل، الذي اغتيل في ١٤ سبتمبر من ذلك العام، قبل عشرة أيام من تسلُّمه الرئاسة من الرئيس الياس سركيس. وكان الشيخ أمين صديقاً أعرفه وأحترمه وتربطني به علاقة ودّ وزمالة في العمر. ولما تمّ انتخابه تلفنت له من باريس كي أهنئه فلم أتمكن من مخاطبته شخصياً إذ قال لي مرافقه إنه في اجتماع، وطلب مني رقم هاتفي واسمي فأعطيتهما له.

وما لبث أن اتصل بي وكان سعيداً، وكنت أشد سعادةً وطلبت منه موعداً فقال:

ـ أنا بانتظارك.

التقيت الرئيس الجميل صباح التاسع من اكتوبر ١٩٨٢ في منزله الشخصي في بكفيا، وأمضيت في ضيافته من التاسعة صباحاً حتى الخامسة والنصف بعد الظهر. وكان يتركني لدقائق فيرد على التلفون أو يجري اتصالاً بأحد. ثم اصطبحني بسيارته ومعنا مرافقه النقيب سلموني ومن وراء المقود كان يتصل بالتلفون اللاسلكي بمن يشاء، ويرد على المكالمات كأنه في مكتبه. وقمنا معاً بعدة زيارات خاصة لعدد من أصدقائه والمقربين منه، ثم ذهبنا إلى مكاتب مؤسسته «المستقبل» التي كانت تحمل اسم مجلتنا الباريسية وكانت بحق أكبر مؤسسة معلومات ودراسات في الشرق الأوسط. وفي مكاتب «المستقبل» تجمهر حولنا كتابها

وباحثوها وفنيوها والسكرتيرات والموظفون حتى بدت الصالة وكأنها عرس، فالرئيس ـ وهذا كان لقبه في المؤسسة التي كان يديرها قبل انتخابه رئيساً للجمهورية ـ يزور رفاق دربه للمرة الأولى منذ انتخابه، ولا بدّ من الاحتفال بِمَقْدَمه.

وكان التاسع من اكتوبر، بالنسبة لي أيضاً ـ عرساً رائعاً. ولا أحسب أن أحداً من أصدقاء الرئيس حالفه مثل هذا الحظ، فقد بقيت إلى جانبه في السيارة وفي الزيارات، وفي البيت، وإلى طاولة الطعام طوال نهار كامل، من المنقوشة بالزعتر صباحاً، حتى قهوة بعد الظهر، مروراً بغداء طيب من الكبة باللبن.

في أواخر مايو من العام ١٩٨٣، عدت إلى الرئيس أمين الجميل، لزيارته أوّلاً، ثم لرؤية صائب بك. والتقيت الرئيس هذه المرة في القصر الجمهوري بعد أن ترك بيت بكفيا الصغير لأسباب متعددة من بينها السبب الأمني الذي قال لي مرافقه النقيب سلموني: إنني كنت وراءه.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الرئيس سلام وقلت له انني قضيت معظم نهار أمس بين أهلي ومع الرئيس الجميل.

وقال الرئيس صائب بك:

ـ يا عيب الشوم. أنا الذي جمعت للرئيس الجميل تأييد المسلمين بعد أن كنا قد قاطعنا انتخابات أخيه بشير، أطلب منه موعداً فلا أقابله إلا بعد اثني عشر يوماً؟ وطلبت مقابلة

لمدة ساعة على الأقل فلم أبق عنده سوى نصف ساعة؟ أليس في ذلك موقف منه لا يمكن فهمه؟

وقلت للرئيس سلام:

ـ الحقيقة أنني لا أعرف السبب، فهل تريدني أن افعل شيئاً؟

فقال:

ـ أريدك أولاً أن تبلغه، ما دمت قد جئت أول أمس والتقيته للتو مرتين على الأقل،

وقاطعت الرئيس سلام قائلاً:

ـ أرجو المعذرة يا دولة الرئيس، لكن مقابلته لي ليست كمقابلتك له. فأنا التقيته داخل بيته العائلي مع السيدة زوجته وأولاده ومرافقيه ومساعديه. وكان يتركنا ليذهب إلى مكالمة هاتفية، أو لمقابلة محجوزة سلفاً، أو لقضاء عمل، فأبقى في الصالون مع أفراد العائلة من دون أن يحرجني ذلك أو يحرجهم، أو يحرج الرئيس.

وقال الرئيس سلام بلهجته المحببة العاطفية معي:

ـ «بلا طق حنك». لقد رأيته والتقيت به أكثر من مرة.. وعلى كل حال، هذا ليس موضوعي. موضوعي هو التالي:

أولاً: أبلغه أنني عاتب عليه،

وثانياً: كان عندي ملف أردت أن أعرضه عليه فلم يسمح الوقت بذلك. فخذه وأبلغه محتواه.

قلت:

ـ تكرم يا دولة الرئيس. تفضل.

فقال:

ـ عندنا في بيروت الآن صديق اسمه رفيق الحريري، وهو رجل أعمال سعودي من أصل لبناني صيداوي، يعمل في المملكة. وهو صديق للملك فهد بن عبد العزيز. وقد أرسل لي الملك فهد رسالة يوصيني فيها برفيق، ويطلب مني أن أساعده لأنه آتٍ لمساعدتنا وإعمار بلدنا مع عهد الرئيس الجديد أمين الجميل.

وقلت:

ـ نعم.

وقال:

أريدك أن تذهب إلى الرئيس أمين، وتطلب منه شخصياً أن يضغط على جماعة القوات اللبنانية كي يفرجوا عن معدات الحريري الإنشائية والإعمارية الموجودة في مجمَّع كفرفالوس الجامعي. فالرجل كان بدأ بإنشاء جامعة ومستشفى ومساكن للناس وإذا بالقوات اللبنانية تهاجم مشروعه وتضع يدها على سياراته وجراراته ومعدات تقدر بخمسمائة مليون دولار على الأقل.

وقلت للرئيس سلام:

ـ تحت أمرك. سأذهب فوراً إلى الرئيس الجميل وأطلب منه ذلك.

وقال الرئيس سلام:

ـ أريدك أن تعود من عنده وقد أديت المهمة، فأنا لا أستطيع أن أبدو أمام «الإخوان» عاجزاً عن عمل كهذا.

شربت القهوة المرة عند الرئيس سلام، واتصلت من مكتبه بالقصر الجمهوري، وذهبت إلى الرئيس الجميل الذي طلب مني أن أحضر وأنتظر فقد يستطيع أن يلتقيني بين موعدين. وقال الرئيس سلام:

ـ اذهب إليه.. وحالما تخرج من عنده تلفن لي.

وذهبت إلى القصر، وانتظرت طويلاً.. ثم دخلت على الرئيس وقلت له بشيء من الصراحة والقسوة اللتين عوَّدني عليهما، وكان يرتضيهما مني:

ـ ليس مقبولاً منك يا رئيس أن تبادل صائب بك بهذا الجفاء فقال الرئيس:

ـ خير إن شاء الله، وهل فعلت شيئاً كهذا لا سمح الله؟

وقلت له:

ـ صائب بك طلب منك موعداً فأعطيته له بعد أحد عشر أو اثني عشر يوماً. وحاول أن يجعله لمدة ساعة ونصف الساعة... أو ساعتين فجعلته لنصف ساعة، وأنت تعلم، وأنا أعلم، والله يعلم أن صائب بك كان عمودك الفقري في استلام سدة الرئاسة، فلماذا تعامله بهذا الإجحاف؟

ـ وفوجئ الرئيس الجميل بهذا الكلام، ورأيت وجهه وقد عبق بالدم الأحمر وقال:

ـ أولاً، أنا أعتبر الرئيس سلام بمثابة عم من أعمامي، وأكن له كل محبة واحترام.

ثانياً: لم يكن ممكناً أن ألتقيه إلا في الموعد الذي التقيته فيه. فأنا «في القصر من امبارح العصر» ولم ألتق أحداً قبله كي يعتب علي.

ثالثاً: لم يكن ممكناً أن أجلس مع الرئيس سلام لمدة ساعتين لاستحالة ذلك بسبب ضيق الوقت وكثرة المواعيد والعمل المتواصل لملاحقة مساعي الخروج من الأزمة. ولا تنسَ أننا نخوض حالياً مفاوضات شاقة مع اسرائيل. (وهي المفاوضات التي بدأت في ٢٨ يناير ١٩٨٢ وانتهت باتفاق مايو ١٩٨٣ وهو الاتفاق الذي ولد ميتاً.. ودفن).

وقلت للرئيس الجميل:

ـ وطلباته؟ لماذا لم تحقق له منها شيئاً؟

وقال الرئيس الجميل:

ـ مشكلتي أنني عاجز عملياً عن تلبية طلبات جميع الزعماء والأحزاب والقوى. فالبلد منهك، وقدرات القصر تكاد تكون صفراً. ثم إن الرئيس سلام يَمُون، فما هو الطلب الذي لم أحققه له؟

وقلت:

ـ لا أعرف بالضبط، لكنني علمت أنك وعدت ولم تَفِ.

فقال:

ـ قد يكون هذا صحيحاً لكنني لا أملك من أدوات إيفاء الوعود سوى الوعد. وإذا تمكنت تكرم عينك وعينه.

وقلت للرئيس الجميل:

ـ الآن.. جاء دوري. فعندي طلب هام ومستعجل جداً، فهل ستلبيه لي؟

فقال الرئيس:

ـ إذا كان في إمكاني، أهلاً وسهلاً، وإلّا فلا تعتب عليّ.

ـ وشرحت له قصة رفيق الحريري، ومجيئه إلى لبنان، والرسالة التي تسلمها صائب بك من الملك فهد بن عبد العزيز يوصيه بالحريري. وقبل أن أختتم الموضوع همست للرئيس قائلاً:

ـ بيني وبينك. هذا الطلب ليس مني شخصياً، فأنا لا أعرف الحريري ولا لبست حريراً في حياتي. هذا الطلب يخص صائب بك، وأنا مكلف أن أنهيه له على اساس أنه يخصني فهل أنت فاعل؟

قال:

ـ لقد حسبت ذلك. فأنا لا أتصور أنك تعرف الحريري الحديث العهد على الساحة اللبنانية والصحفية. وعلى كل حال، أنت والرئيس سلام تأمران.

وقلت:

ـ أستغفر الله.

وأخذ الرئيس التلفون واتصل بالسيد فادي فرام رئيس القوات اللبنانية في ذلك الوقت. وقال له بلهجة حاسمة:

ـ عندكم معدات وآليات محتجزة تخص رفيق الحريري في تلة كفرفالوس. أرجو أن تفرجوا عنها في أقرب وقت ممكن، وأبلغني بذلك.

ومن خلال جواب الرئيس أدركت ما قاله رئيس القوات وهو تقريباً ما يلي:

ـ دعني أحقق في الأمر وسوف أجيبك حالاً.

وقال الرئيس الجميل وأنا أسمعه:

ـ انا في مكتبي، بانتظار اتصالك.

وأخذنا نتحدث في أمور أخرى، فاغتنمت الفرصة وقلت له:

ـ وصائب بك؟

فقال:

ـ ما به صائب بك؟

قلت:

ـ لا بدّ أن تسترضيه. فقد فعل لك، وللمسيحيين

والكتائب بشكل خاص ما لا يمكن نكرانه. وإذا كان العمل الوطني يستحق الجائزة، فإن الرئيس سلام يستحق مئة جائزة على الأقل، فالذي فعله ـ ولم يكن مضطراً لفعله ـ لا يفعله أحد على الاطلاق.

فقال الرئيس الجميل:

ـ وهل تظن أنني لا أعرف ذلك؟ إن الرئيس سلام لا يمكننا أن نكافئه. وإذا كان قد عتب عليّ لأنني لم أستقبله كما أراد فقل له أن ينتظرني غداً في جمعية المقاصد الخيرية.

وقلت له وقد غمرني الفرح:

ـ هاه.. قل لي ماذا تنوي أن تفعل؟

وقال الرئيس الجميل على عجل، وكأنه لم يكن يريد أن يُسمعني ما قال:

ـ اعتبر ما قلته لك سرًّا من الأسرار للضرورة الأمنية، لكنني أطلب منك أن تصحبه إلى المقاصد بين الرابعة والخامسة من بعد ظهر غد. فسوف أفاجئه وأفاجئك وأكون بذلك قد حققت طلبك، وقدمت له اعتذاري بطريقة صارخة.

وحاولت أن أدخل في التفاصيل فقال الرئيس:

ـ لا تدخل في التفاصيل، لم يعد بإمكاني أن أتحرك بسهولة لأسباب أمنية. عليك فقط أن تطلب منه بينك وبينه في الرابعة بعد الظهر أن يذهب إلى حفل المقاصد لأنني سأوفد له أحداً من قبلي.

واهتزت الصورة في ذهني وقلت للرئيس:

ـ لكنك تعلم أن الرئيس صائب بك لم يعد يتحرك كما في السابق. فقد بلغ من الكِبَر عِتيًّا.. والبركة بابنه تمام الذي يدير المقاصد عن جدارة. فهل تستطيع أن ترسل له موفدك إلى بيته بدلاً من المقاصد؟

وقال الرئيس الجميل:

ـ لا. لا أستطيع. عليك أن تأتي معه، أو أن تحثه كي يحضر شخصياً.

* * *

ودخل مدير مكتبه في القصر، وقال:

ـ سيدي.. لك مكالمة هاتفية من السيد فادي فرام فقال الرئيس على عجل:

ـ هاته.. هاته

وحالما أخذ السماعة قال:

ـ هاه. ماذا فعلت؟

فقال الطرف الآخر:

ـ .....

وقال الرئيس الجميل:

ـ طيب. اذن الجمعة في الساعة الرابعة بعد الظهر؟

وقال الطرف الآخر:

ـ ....

وقال الرئيس الجميل:

ـ هل نقول له ذلك؟

وقال الآخر:

ـ ....

حسناً.. حسناً.. فلا تتأخروا عن الموعد وإلّا.

وأغلق الخط وقال لي:

ـ تفضل. كل معدات الحريري ستعود إليه في تمام الرابعة من بعد ظهر الجمعة، بعد غد.

ونهضت فوراً، وقبّلت الرئيس الجميل، وقفزت خارجاً من المكتب إلى غرفة المرافق الضابط واتصلت بالرئيس سلام بصوت منخفض جداً لأن المكتب لا يفصله عن مكتب الرئيس الجميل سوى جدار من الخشب التيك الجميل اللون والشكل.

وقال الرئيس سلام فوراً:

ـ هاه. قمحة أم شعيرة؟

فقلت:

ـ نحن نأكل خبز القمح يا بك.

فقال:

ـ هل أبعث لك السائق؟ أين أنت؟

فقلت:

ـ أنا ما زلت في القصر الجمهوري، ومعي سيارة من سيارات الرئيس فلا تقلق.

فقال الرئيس سلام:

ـ إذن.. تعال فوراً، أنا بانتظارك على الغداء.

ودخلت على الرئيس سلام فاستقبلني ببشاشته المعهودة وقال هامساً:

ـ تعال معي إلى مكتبي نشرب شيئاً بارداً ونتحدث قليلاً قبل أن يجهز الغداء.

ودخلنا وأخبرته بكل ما حصل مع الرئيس الجميل حول مسألة كفرفالوس، ولم أخبره عن قصة المقاصد بناء على طلب الرئيس الجميل، لكنني قلت له:

ـ أرجو يا صائب بك أن تستقبلني غداً بعد الظهر لأنني مضطر أن أتحدث مع باريس بالتلفون وليس هناك تلفونات كثيرة حيث أقيم.

وقال الرئيس سلام:

ـ ولماذا غداً. خذ السماعة واطلب عائلتك.

فقلت للرئيس سلام بسرعة:

ـ لا.. لا. أرجوك ليس الآن ان موعدي مع زوجتي هو غداً في الرابعة بعد الظهر.

وقال الرئيس سلام:

ـ تعال أهلاً وسهلاً، فسوف أكون وحدي. وستكون مناسبة لك كي تشارك تمام في احتفال المقاصد.

فقلت:

ـ عال. اتفقنا.

وقالت الخادمة الفيليبينية:

ـ الغداء جاهز يا سيدي.

وقمنا إلى الغداء وكان ضيفا الطاولة: ابنه عمرو وعروسه وكانا تزوجا منذ أيام، وهما الآن في ضيافة الوالدين على غداء طيب.

وبينما كنا نتناول الطعام، دخلت المضيفة الفيليبينية الثانية حاملة التلفون إلى حيث يجلس صائب بك على رأس الطاولة وقالت له:

ـ مستر هريري

وقال صائب بك بالانكليزية:

ـ أعطيني التلفون.

وقال:

ـ أهلاً رفيق، أهلاً وسهلاً، كيفك؟ القصة أنهيناها لك، والمعدات ستكون في حوزة مساعديك بعد ظهر الجمعة بعد غد، فأبلغهم بذلك، وأبلغني في حينه ماذا يحصل.

وانتهت المكالمة. وانتهى الغداء. وعدت إلى حيث كنت أقيم موقتاً في بيروت.

في اليوم التالي، ذهبت إلى منزل صائب بك، وصعدت إليه، وكان المنزل شبه خاوٍ من الرجال، فالجميع في حفل المقاصد. وجلسنا نتحدث قليلاً، فقال الرئيس سلام:

هات التلفون كي أبلغ السكرتير أن يطلب لك رقم بيتك بباريس.

وقلت للرئيس سلام:

ـ لكنني لا أريد أن أتصل بالبيت، لقد كان ذلك حيلةً مني. والمقصود بوجودي هنا الآن أن أطلب إليك أن تذهب معي إلى احتفال المقاصد لأن مفاجأة تنتظرك هناك.

وقال الرئيس سلام:

ـ خير إن شاء الله. ما هي المفاجأة؟

فقلت:

ـ لقد أبلغني الرئيس الجميل أمس أنه يحضّر لك مفاجأة الآن، أو بعد ساعة في المقاصد، فقم بنا نذهب.

وقال صائب بك:

ـ لكنني لا أحضر احتفالات عامة كما تعلم. وصحتي لا تسمح لي بذلك. فما هي المفاجأة التي تضطرني للذهاب إلى هناك؟

وقلت:

ـ معلوماتي أن الرئيس الجميل سيوفد لك أحداً يمثله في الحفل. وأما ظني فهو ان الرئيس الجميل سيحضر شخصياً.

وقال الرئيس سلام على عجل:

ـ صارحني. ما الخبر؟

فقلت:

ـ والله يا صائب بك لا أعرف غير ما قلته لك. فقد أبلغني الرئيس الجميل أن أسباباً أمنية تمنعه من المصارحة، قال إنه يُحَضِّر لك مفاجأة. وتقديري أنها هو شخصياً وإلّا لم يكن ليطلب مني كل هذا الانتباه والسرية.

ويبدو أن الرئيس سلام أدرك بفراسته الفريدة أن الرئيس الجميل شخصياً سيغتنم مناسبة احتفالات المقاصد كي يقوم بحركة وطنية جيدة، فصرخ قائلاً:

ـ من هنا؟

فلم يرد أحد.

ثم قال بالانكليزية:

ـ من هنا؟ وأخذ سماعة التلفون واتصل بالسكرتاريا تحت قائلاً:

ـ من هناك؟ من من المرافقين هنا، أين الشَباب؟

لكن يبدو أن أحداً لم يكن هناك.

ودخلت المضيفة مدبرة البيت الفيليبينية، وقال لها:

ـ أين السيدة؟ أين عمرو..

وقالت المضيفة

ـ مستر عمرو ذهب مع المستر تمام والآخرين. والسيدة مع عدد من ضيوفها تحت، فهل تريدني أن أقول لها شيئاً؟

وقال الرئيس سلام بشيء من النرفزة.

ـ لا، لا تقولي شيئاً.. اذهبي. شكراً. ما هذا النهار. هل يعقل أن يكون البيت خالياً إلى هذه الدرجة؟

ثم نظر إليَّ وقال:

ـ بماذا أتيت إلى هنا؟ هل معك سيارة الرئيس؟

فقلت له وقد أدركت الحالة الصعبة التي وقعنا جميعاً فيها:

ـ لا يا سيدي. لم يكن باستطاعتي أن أحتجز السيارة والسائق لأنني لم أكن أعرف كم من الوقت سأبقى هنا وفي المقاصد إذا ذهبنا.

وركض الوقت، والرئيس سلام يدور من غرفة إلى غرفة. وأخيراً قال لي:

ـ افتح الراديو، افتح الراديو

ولم أكن أعرف أين الراديو كي أفتحه مع أنني أعرف أن الترانزستور الصغير لا يفارق صائب بك أبداً.

وقال:

ـ أسرع.. أسرع. إنه على مكتبي. أسرع.

وركضت ووجدت الراديو وجئت له به، ففتحه على إذاعة لبنان. وسمعنا صراخاً وتصفيقاً حاداً ورجلاً يخطب بصوت عال، وسرعان ما أدركت من هو، فقلت للرئيس سلام:

ـ إنه هو.. هو يا صائب بك. إنه أمين الجميل في المقاصد، يلقي كلمة، فهل تسمع؟

وقال الرئيس سلام:

ـ اسمع، اسمع يا بني اسمع. لكن قل لي بصراحة؟

ـ ألم تكن وراء الذي هو حاصل الآن؟

فقلت:

ـ لا والله يا صائب بك. أقسم لك أنني لم أكن وراء ما حدث. إنها مبادرة من الرئيس شخصياً، وقد لمّح لي بها تلميحاً لكنني لم أشأ أن أخبرك في حينه بناء لطلبه، لأنه كان يريد أن يفاجئك بها.

* * *

مساء الجمعة، وقبل حلول الظلام كانت معدات رفيق

الحريري قد عادت جميعها إليه، باستثناء بولدوزر قالت القوات اللبنانية إن سعد حداد احتجزه كي يشق به طريقاً من الجنوب إلى جزين لتسهيل مرور دورياته وجنوده.

ولم يتدخل أحد لاسترداد البولدوزر. فالسيد الحريري خرج مستعيداً ٩٥ بالمئة من معداته ولم يكن يستطيع أن يطالب بأكثر من ذلك. وصائب بك لم يجد مبرراً كبيراً للإصرار على كل شيء أو لا شيء، ما دام صاحب المعدات لم يعترض. والرئيس الجميل وجد نفسه قادراً على تلبية طلب للرئيس سلام على هذا المقدار من الأهمية. أما أنا، فقد التزمتُ الصمت إذْ ليس لي في كل ما حدث سوى أنني حاولت تقريب المسافة بين الرئيسين الصديقين: أمين الجميل وصائب سلام.

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

اللوحة الزيتية

عدت من بيروت إلى باريس، واستأنفت عملي بشيء من المعنويات اللبنانية. فقد أصبح صديقي رئيساً للجمهورية، أكثر جمهوريات العالم مصدراً للأخبار والمفاجآت. وصار في مقدوري أن أكتب في «المستقبل»، بشيء من التأكيد، أخباراً ومعلومات لا يعرفها أحد من الصحافيين والصحف اللبنانية. وقد زاد في ارتفاع معنوياتي أن الرئيس أمين الجميل طلب مني أن أبقى إلى جانبه في بيروت، لكنني فضّلت أن أبقى في باريس وأساعده من هناك.

- «فعلى الأقل يا فخامة الرئيس، نحن نرى الأمور من فرنسا بمنظار أوضح، ويمكنني أن أُلخّص لك ما نراه وما نسمعه وما نقرأه في رسائل دورية».. فوافق الرئيس على هذا الاقتراح.

في باريس، أحيطت قصتي مع السيد رفيق الحريري، الذي لم يكن يعرفني ولا أعرفه في ذلك الوقت (١٩٨٢) بكثير من اللغط وسوء الفهم وسوء التفاهم، واختلط الأمر على كثير من الناس المقربين من أبطال القصة، فكادت أن تحدث مشكلة. ولذلك، أستميحكم عذراً فاسمحوا لي أن أتناول ظروفها وتفاصيلها، ثم نعود إلى الحديث عن صائب بك.

* * *

كنت في مكتبي بباريس، في حدود الساعة الثانية عشرة عندما رن جرس التلفون إلى جانبي، وقال الصوت على الطرف الآخر:

ـ هل أنت شكري نصر الله؟

فقلت:

ـ نعم. ومن أنت؟

فقال:

ـ أنا رفيق الحريري.

فقلت مسارعاً:

ـ أهلاً وسهلاً. كيفك يا أستاذ رفيق.

وتابعت بالانكليزية قائلاً:

ـ اننا فخورون بك وبما تعمل.

وقال:

ـ أريد أن أراك

فاتفقنا على موعد، فذهبت إليه في تمام الواحدة وعشر دقائق بعد الظهر، فاستقبلني استقبالاً حارًّا جداً، وعرّفني إلى أصدقاء له كانوا في غرفة الجلوس.. ثم دخلنا إلى غرفة أخرى وجلسنا وحدنا يسألني عن حالي وأسأله عن أحواله.. إلى أن قال فجأة:

ـ أريد أن أعرف منك شخصياً تفاصيل قصة كفرفالوس.

فقلت له:

ـ أي قصة؟ وأي كفرفالوس؟

فقال:

ـ هل تستطيع أن تصارحني؟ من هو الشخص الذي أنقذ معداتي التي كانت محتجزة في كفرفالوس عند القوات اللبنانية؟ فلان، أم فلان، أم فلان؟ (وذكر ثلاثة أسماء).

وأجبته:

ـ أظن أنني سمعت شيئاً من هذا وأنا عند الرئيس أمين الجميل.

وقال:

ـ كيف كان ذلك. أرجو أن تصارحني، وبالتفصيل؟

فقلت:

ـ كنت عند الرئيس الجميل في القصر. وسمعته يقول للرئيس صائب سلام إن معدات كفرفالوس ستعود للحريري الساعة الرابعة من بعد ظهر غد الجمعة.

وقال الحريري:

ـ تقصد أن الرئيس سلام هو الذي طلبها، أم أنت؟ أم فلان، أم فلان؟

فقلت بحسم:

ـ لا، انه الرئيس سلام. أما أنا، فكنت بالمصادفة في مكتب الرئيس الجميل.

وهزّ الحريري برأسه كثيراً، ويبدو أن أطرافاً أخرى دخلت على الخط وأوحت له بأنها وراء الوساطة، فقرر أن يسمع إفادتي. وأخيراً قال:

ـ قم بنا نتغدّى:

فقلت:

ـ أنا لا أتغدى، بل أتعشى فقط. لأن الغداء يزعجني.

وقال:

ـ قم واجلس معنا. فمفتاح البطن لقمة.

وقمت وجلست إلى الطاولة معه ومع السيدة عقيلته، ولكنني لم آكل شيئاً. وكانت السيدة نازك الحريري تشرف في ذلك النهار على ترتيب ديكور المنزل الذي كانوا يسكنونه للتو. ورأيت في غرفة الطعام لوحات زيتية ومائية، فوجدت نفسي أطرح السؤال الذي لا بدّ منه. فاللوحات هوايتي وجمع العتيق والجديد والعادي والأقل من عادي منها شَغَفي ومرضي الذي يلازمني منذ طفولتي.

ـ من هو رسامُكِ المفضل يا سيدتي؟

فقالت:

ـ لست خبيرة بجمع اللوحات، لكنني أحب أن أقتني بعضاً منها.

وعدت إلى السؤال:

ـ ومن هو الفنان الذي تعجبك لوحاته كثيراً.

ففاجأتني قائلة:

ـ أحب لوحات بول غيراغوسيان

ويا للمصادفة الغريبة، فقد كنت أقتني لوحة من أجمل لوحات غيراغوسيان، اشتريتها بثمن رخيص عن طريق زميلنا الشاعر بول شاول، إضافة إلى صفحتين عن هذا الفنان في مجلة «المستقبل» بقلم بول شاول نفسه؛

ورأيت نفسي أقول للسيدة الحريري:

ـ من غريب المصادفات أنني اقتني إحدى روائع غيراغوسيان. وغداً، إن شاء الله، تكون عندك.

فقالت بتهذيب لافت:

ـ اشكرك شكراً جزيلاً. لا تعذب نفسك. فأنا لست محترفة في جمع اللوحات. شكراً.. شكراً.

وفي الرابعة بعد الظهر، غادرت منزل رفيق الحريري، فرافقني حتى الباب الخارجي. وهناك أعطاني أرقام تلفوناته الخاصة وقال لي:

ـ إذا احتجت إليّ في أمر من الأمور، فلا تتردد في الاتصال بي على هذه الأرقام، وسوف ترى أن لك أخاً هنا هو رفيق الحريري.

وقلت له:

ـ أشكرك شكراً جزيلاً، لكن يجب أن أقول لك إنني مصاب بعقدة اسمها التلفون. فإذا احتجت إليك وطلبتك على واحدٍ من هذه الأرقام، ولم تجبني فسوف أظن أنك لا تريد الإجابة، و﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثم﴾.. ولكي لا نقع في مثل هذا الإشكال، سيكون أسهل عليك أن تتطلبني إذا احتجت إليّ وسوف أكون تحت أمرك.

وخرجت من البيت.

وفي صباح اليوم التالي، أخذت لوحة غيراغوسيان واشتريت لها إطاراً خشبياً مُذهّباً ملكيّاً، واستقلّيت السيارة وبرفقتي الزميل في المستقبل، آنذاك، جوزف مشهور، وذهبنا إلى شقة الحريري في منطقة باسي الباريسية. وانتظرت جوزف الذي حمل اللوحة وعبر بها البوابة الحديدية ثم انعطف نحو نقطة حراسة منزل الحريري، ورأيت، من وراء مقودي في السيارة، أحد المرافقين يمرّر حولها آلةً للفحص الالكتروني كالتي يستخدمها رجال الشرطة في المطارات. ولما تأكد أنها خالية من الضرر، أخذها ونقلها إلى المنزل، وعاد جوزف إلى السيارة فسألته:

ـ هل أخذوها لبيت الحريري؟

فقال:

ـ نعم. وقد أخضعوها للفحص الإلكتروني قبل أن ينقلوها إلى داخل المنزل.

* * *

وبعد،

فقد رويت هذه القصة بهذا التفصيل لسببين اثنين:

الأول: أن السيد رفيق الحريري لم يكن متأكّداً أن صائب بك هو الذي أنقذ معداته من كفرفالوس، على رغم أنه طلب مساعدته. وكان السيد الحريري يظن أن جهات أخرى قامت بالمهمة. ولكي يقف على الحقيقة، ويعرف إلى مَنْ، مِن هذه الجهات، هو مدين، اتصل بي وجرى بيننا ما جرى. وقد أدركتُ، وأنا عنده، أنه يحمل بعض الشك في القصة، فأخرجت نفسي من الموضوع تماماً، وجعلته للرئيس سلام فقط لا غير. وقد كنت أحمل، من التجربة والمحبة للرئيس سلام، ما يجعلني أصمد أمام الامتحان. وقد علمت، فيما بعد، أن السيد الحريري كان معجباً إلى آخر الحدود، بما قلته له، والطريقة التي أسندت فيها للرئيس سلام هذه المبادرة الجميلة، التي كانت فعلاً مبادرته الشخصية، ولم أكن فيها سوى وسيط، أو حامل رسالة فقط لا غير.

والسبب الثاني: أنني، حتى كتابة هذه السطور، أي بعد ١٧ سنة من زيارتي الأولى للسيد رفيق الحريري، لم أعرف، ولم يخبرني أحد من داخل البيت، أن لوحة غيراغوسيان وصلت بخير أو لم تصل. وهو أمر استغربته وما زلت أستغربه حتى الآن. وإذا كانت اللوحة قد ضاعت، فلا شكَّ أن أحداً ضيّعها على باب المنزل، لأنها دخلت وروقبت، وجرى عليها الفحص الإلكتروني، وانتقلت من مركز

المرافقين إلى البيت، أي على بعد لا يزيد عن خمسة أمتار أو أقل. ومن المؤكد أنه لم يكن يليق بي أن أسأل الأستاذ الحريري، أو أتّصل بالأرقام التي أعطاني إياها كي أسأل: هل وصلت اللوحة أم لا.

* * *

ـ ولهذه القصة الغريبة تتمة سوف أذكرها لكم ذات يوم، إن شاء الله.

وعدم المؤاخذة. فقد سرقت منكم وقتاً طويلاً للتحدّث عن موضوع شخصي. فالرجاء أن تسامحوني.

ونعود الآن إلى علاقتي بالرئيس الحنون صائب سلام.

... بعد شهور قليلة من حادثة كفرفالوس، ولقائي بالرئيس أمين الجميل وزيارته إلى المقاصد، وصل الرئيس سلام إلى باريس، فذهبت إليه، وعرفت أنه قرر أن يعيش في فرنسا لمدة من الوقت: لأنه لم يعد قادراً على العيش في بيروت. فالوضع الأمني لم يكن آمناً. وأيام الغزو الإسرائيلي وحصار بيروت أنهكته ففقد كثيراً من وزنه، والوضع السياسي لم يكن مناسباً لبقائه هناك.

وأقام الرئيس سلام مع السيدة عقيلته في ضاحية بعيدة قليلاً عن باريس، على مسافة ٣٠ كيلومتراً منها، وسكن في فيللا جميلة فيها حديقة وارفة وطيور وبيسين يمكن تسخينه لممارسة رياضته اليومية في السباحة. وكان معه خادمتاه وطباخه.

وكنت أزوره مرتين في الأسبوع على الأقل، وحدي، أو أصطحب أصدقاء يطلبون مقابلته والسلام عليه. ولا أذكر أنه رفض لي، أو للذين معي، أي موعد. غير أنني كنت أتصل به سلفاً وأُبلغه بأسماء الذين يريدون زيارته، فإذا لم يكن يعرفهم كنت أعرّفهم إليه بكل صدق وصراحة. وكان يكفي أن أشرح له ما أعرفه عن الزائر كي يقول لي وله: «أهلاً وسهلاً»، أو يقول: «لعلّي استقبله في مرة لاحقة».

ولم يكن صائب بك ليبتعد عن بيروت، وهو حبيب الشعب، إلا لأنه كان يشعر، في قرارة نفسه، بشيء من خيبة الأمل التي قوبل بها وهو الذي لولاه ولولا مساعيه لدى المسلمين السنَّة، ما كان لبشير الجميل أن يفوز بثقة اللبنانيين على رغم أن الرئيس سلام وكتلته النيابية وسائر النواب السنَّة لم ينتخبوه.

وأزعم أن صائب بك خرج من لبنان عاتباً على السوريين وحلفائهم اللبنانيين من جهة، وعلى الموارنة والرئيس أمين الجميل بالذات من جهة ثانية.

وفي حين يعرف القاصي والداني أن للرئيس سلام مواقف لا تتفق مع الموقف السوري في لبنان، ومن لبنان، فإن عدداً قليلاً من الناس يعرف أسباب عتب صائب بك على الحكم اللبناني آنذاك، المتمثل بالرئيس أمين بيار الجميل. وسأحاول أن أفصّلها في ما يأتي، باختصار، ومن وجهة نظري الشخصية.

* * *

خلافاته مع العهود

طوال الحرب اللبنانية التي بدأت في ١٣ نيسان/ابريل ١٩٧٥، وأعلنت هدنتها الأولى بدخول السوريين إلى لبنان (صيف ١٩٧٦) لمساعدة الحكومة اللبنانية، وبناء على موافقتها بشكل خاص كان الرئيس صائب سلام يتمسَّك بدور الزعيم الملهم الذي يقف فوق الطائفية ولا يُولي الخلافات الحزبية والمذهبية والدينية انتباهه. وكان وحده تقريباً من بين الزعماء اللبنانيين، ينظر إلى الحرب اللبنانية على أساس أنها حرب مفتعلة مُستوردة، تندرج في مؤامرة غريبة، تنفذها أيدٍ غريبة وأيدٍ لبنانية معاً. ولذلك كان همه الأكبر أن يُبعد عنها الصفة الطائفية والمذهبية إلى درجة أنه كان وحده، أيضاً، يتَّصل ويحاور ويجترح الأعذار المنطقية للدفاع عن الطرف الآخر في الحرب، وهو الطرف الكتائبي، من دون أن يعفي هذا الطرف من المسؤولية، فقد كان صائب بك يؤمن إيماناً لا يُضاهَى بأن لبنان طائر بجناحين، جناح مسيحي وجناح مسلم، ولا يمكن لهذا الطير أن يعيش إلا بجناحين متساويين. فإذا أصيب جناحٌ أو جَنَح، كان صائب بك يؤمن بضرورة معالجته، ولم يكن يؤمن بالبتر: لأن البتر معناه عجز الطائر عن الطيران.. ولبنان يموت إذا بُتر أحد جناحيه. لذلك كان يردِّد دائماً عبارة التفهُّم والتفاهم، ويقصد بها أن على الجناح المسلم أن يتفهم ظروف الجناح المسيحي، والعكس بالعكس، لكي يمكن أن يتفاهما. ومن دون التفهم،

أي مراعاة ظروف الناس، لم يكن ممكناً إصلاح حال لبنان في نظر الرئيس صائب سلام. ولهذا السبب بالذات وقف ضد قرار العزل الذي اتخذته «القوى الوطنية اللبنانية» من حزب الكتائب والجبهة اللبنانية. فقد كان يعتقد أن عزل المسيحيين، وخصوصاً قيادتهم المارونية، يعني رميهم في أحضان الأغراب أيًا كان هؤلاء الأغراب. وفي العام ١٩٧٦ رمى الموارنة أنفسهم في أحضان سوريا كي تنقذهم من الأشقاء اللبنانيين والفلسطينيين. وبعد ذلك رموا أنفسهم في أحضان اسرائيل من دون أن يكون ذلك هدفهم أو طمعهم.

أما عتب الرئيس سلام على الأشقّاء السوريين، فلست أملك جميع ظروفه ومعطياته، على رغم أنني أعرف أن عتبه كان قائماً على أساس أنه أعطاهم كثيراً، ولم يبادلوه العطاء بالعطاء.

وأما عتبه على الموارنة والرئيس الجميل بالذات، فأزعم أنني أعرف بعض ملامحه.

... كان صائب بك يحمل للمسؤولين من الموارنة اللبنانيين شيئاً من العتب الثقيل، بل أكثر من العتب وأقل من العداء والكراهية. وقد بدأ ذلك، حسب معلوماتي، منذ أن عيَّنه الرئيس بشارة الخوري رئيساً للحكومة بعد أن انقلب الزعماء الموارنة والدروز وبعض المسلمين على الرئيس الخوري إثْرَ تظاهرات ١٩٥٢ ومطالبة المتظاهرين باستقالة الرئيس.

ويبدو أن الرئيس بشارة الخوري رأى أن الشارع البيروتي لن يهدأ إلا إذا طلب نجدة صائب بك. وكان الرئيس الخوري يظن، وهو مُحِقٌّ، أن بمقدور صائب سلام القوي والحاسم والحازم أن يطوّق الوضع بحياديته وقوته الشعبية ومناقبيته، فدعاه إلى القصر الجمهوري الصيفي في منزل الرئيس الخوري في مدينة عاليه، وكلّفه رئاسة الحكومة. ووافق الرئيس سلام على هذا التكليف واضِعاً شروطاً معينة على رئيس الجمهورية الذي قبل بها، لكن الرئيس سلام فوجئ، وهو بعد في منزل الرئيس، بهجوم نيابي عليه كاد أن يخرجه عن أعصابه، خصوصاً عندما اتّهمه البعض بالتواطؤ مع الرئيس. وكان الرئيس سلام يظن أن النواب المجتمعين في منزل رئيس الجمهورية هم معه ومع الرئيس.. وإلّا فما الذي جاء بهم للوقوف إلى جانبه؟ فهو، بالتالي، كان يظن أنهم سيؤيّدونه في تشكيل الحكومة الجديدة.. لكن الأمور تفاقمت، وازداد عدد النواب والزعماء المعترضين على الرئيس وعلى المنقذ صائب بك معاً، فشعر صائب بك أن رئيس الجمهورية غيَّر رأيه في تكليفه، خصوصاً عندما أبلغه صائب بك شفهياً أنه سيشكل حكومة انتقالية تشرف على انتقال الحكم سلمياً إلى رئيس جمهورية جديد.

وحصل سوء تفاهم داخل منزل رئيس الجمهورية، فاعتذر الرئيس سلام عن تشكيل الحكومة، وقدم استقالته، وعاد إلى بيته متّهماً الرئيس الخوري وقائد الجيش آنذاك اللواء فؤاد شهاب بإبعاده عمداً عن تشكيل الحكومة.

واستقال الشيخ بشارة الخوري، وشكل الحكومة الانتقالية اللواء فؤاد شهاب خصم الرئيس سلام، لكن الوضع سرعان ما عاد إلى طبيعته بانتخاب زعيم المعارضة كميل شمعون رئيساً للجمهورية بعد يوم وربع اليوم على حكومة فؤاد شهاب.

وعهد شمعون بحكومته الثانية للرئيس الصديق يومها، صائب سلام، لكن حكومة سلام لم تعش لأكثر من أربعة شهور حفلت بخلافات حادّة بينه وبين رئيس الجمهورية الذي كان يمضي عامه الثاني في الحكم.

لم تكن أسباب الخلاف بين الزعيمين أسباباً جذرية، ولكنها، حتى ذلك الحين، كانت شخصية في بعض الأحيان، باعتبار أن الرئيس سلام لم يكن يشعر، ولا كان يريد أن يُشعر رئيس الجمهورية بأنه رقم ثانوي.. بل رقم مساوٍ لرئيس الجمهورية عملاً بميثاق ١٩٤٣ الذي ارتضى المسلمون فيه أن تكون رئاسة الدولة للموارنة وأن تكون للسنّة رئاسة الحكومة، أي: الإدارة. وكان الرئيس سلام شديد الحساسية أمام هذه النقطة بالذات، وبسببها كان يقف صلباً أمام الرئيس شمعون في حين كان الرئيس شمعون الشخصية القوية الفذة، القادمة إلى الحكم على أكتاف جميع اللبنانيين، يشعر ويريد أن يُشعر رئيس الحكومة بأنه هو الرقم واحد.. عملاً بالدستور اللبناني نفسه.

لكن الخلاف الودّي بين الرئيسين أخذ يكبر ويتسع ويزداد

سلبية من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٧، عندما تمكن الرئيس كميل شمعون من إجراء انتخابات نيابية عنيفة أبعدت عدداً من كبار زعماء لبنان وفي طليعتهم الرئيس سلام عن المجلس النيابي. وكانت تلك الانتخابات الشعرة التي قصمت ظهر البعير بين الرئيسين وهي الشعرة التي انقلبت إلى موقف سياسي عنيف ثم إلى ثورة مسلحة بدأت في مطلع صيف ١٩٥٨ وكان صائب بك قائدها الأكبر. وتداخلت فيها أطراف خارجية في مقدمتها الجمهورية العربية المتحدة التي كانت تضم مصر وسوريا بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان صائب بك سلام أقرب اللبنانيين والعرب إليه وإلى طروحاته في الوحدة.

ومثلما حدث مع الشيخ بشارة الخوري حدث مع الرئيس شمعون، لكن شمعون لم يستقل ولم يتنازل عن أي قرار أو عمل قام به حتى آخر دقيقة من عهده.

وحالما انتهى عهد الرئيس شمعون وبدأ عهد اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش، والخصم العتيق للرئيس سلام، أطلق صائب بك شعار «لا غالب ولا مغلوب»، على أساس أنه لم يكن يرغب في جعل الموارنة الذين خسروا حرب ١٩٥٨ يشعرون بالهزيمة أمام جمال عبد الناصر ومصر وسوريا والمعارضة اللبنانية التي كان قائدها الأكبر. وعلى رغم قلة القواسم المشتركة التي تجمعه بالرئيس فؤاد شهاب، فإن شهاب جاء إلى الحكم نتيجة تفاهم أميركي مع الرئيس جمال عبد الناصر لإبعاد لبنان عن حرب مدمرة كان يمكن أن تندلع

بعد سقوط النظام الملكي في العراق وإعلان الجمهورية. وكان دخول قوات المارينز الأميركية إلى بيروت في آخر أيام الرئيس شمعون إنذاراً أميركياً للبنان المعارضة والذين وراءهم بجدية الموقف الأميركي.

وسرعان ما أصبح الرئيس سلام قريباً ومقرَّباً من اللواء فؤاد شهاب الذي جاء إلى الحكم في واقع الأمر من نفس الخندق الذي خرج منه صائب بك، لكن بهدوء ودبلوماسية ومسايرة.

بعد عامين على رئاسة اللواء فؤاد شهاب، جاء دور صائب بك لرئاسة الحكومة (١٩٦٠) فشكلها بقليل من التفاهم مع الرئيس شهاب. للأسباب نفسها التي يحملها صائب بك دائماً وهي أنه يريد أن يكون حرًّا في اختيار حكومته وسياستها ما دام ذلك لا يتعارض مع الدستور وتأييد البرلمان. وإذا أضفنا إلى هذه المواقف الحادة من الرئيس سلام في مواجهة الرئيس العسكري فؤاد شهاب، الأسباب الشخصية، وما أكثرها، ندرك لماذا اشتعلت النار في علاقة الرئيسين منذ تشكيل الحكومة التي، لو لم تنل ثقة البرلمان، لما جعلها الرئيس شهاب تعيش لأكثر من عشرين يوماً.

مثلاً:

كان الرئيس سلام يدخن السيجار منذ شبابه، بل إن علامات الرئيس سلام الفارقة كانت: السيجار في يده اليمنى ليلاً ونهاراً. والقرنفلة البيضاء في كتف جاكيتته الشمال ليلاً ونهاراً، وطازجة كل صباح.

وكان الرئيس سلام يستيقظ من النوم باكراً، فيتناول فطوره مع السيدة تميمة عقيلته، ثم يرتدي ملابسه الأنيقة، ويخرج إلى الصالون الذي كان يمتلئ منذ الصباح بالمقربين وأصحاب الشكاوى والمطالب. لكن كان بين هؤلاء كل صباح نفس السيدة البيروتية التي تأتي إلى المنزل بعشرة أو عشرين قرنفلة، تضعها في صحن من الكريستال الحلو الأنيق، وتضع الصحن المملوء ماء، في صحن الصالون على طاولة الوسط فتنبعث في الدار كلها رائحة القرنفل الندية التي تبعث الدفء في النفوس، وترسم المحبة على الوجوه.

وكان صائب بك يختار منها واحدة، فتمسحها الخادمة من الماء ثم يضعها في زر جاكيتته ويبدأ نهاره.

وكانت قرنفلة صائب بك تجعله مميزاً عن سائر اللبنانيين، وكان الرئيس شهاب يستغرب كيف يجمع الرئيس سلام بين القرنفلة ذات الرائحة الزكية، والسيجار ذي الرائحة العابقة التي كانت تضايقه إلى درجة أنه لم يكن يخبئ مشاعره تجاهها، فيطلب من الرئيس سلام بكثير من الحيرة والتهذيب أن يبعد دخان سيجاره عنه، لكن الرئيس سلام كان يظن أن طلب الرئيس شهاب موقف سياسي بدليل أنه هو أيضاً كان يدخن سيجارة ينينجه ذات الرائحة غير الذكية.. ولم يكن أحد يعترض عليه أو على رائحتها.

وكان الرئيس شهاب يشعر بضيق حقيقي إذا جمعته بالرئيس سلام سيارة واحدة، خصوصاً في الأعياد الرسمية

حيث كانا مضطرين للذهاب في سيارة واحدة معاً كما تقتضي التقاليد اللبنانية... وعندئذ كان يبدو على الرئيس شهاب تأففه من سيجار الرئيس سلام، فما ان تتوقف السيارة ويفتح المرافقون الباب حتى يخرج الرئيس مسرعاً لافتاً النظر إلى شيء من الاشمئزاز يرتسم على وجهه.

وإلى جانب السيجار والقرنفلة، كان الرئيس سلام يصر على عدم تسجيل أي موقف يوحي للناس بأنه أقل رتبة من رئيس الجمهورية، وفي إحدى الحفلات الرسمية في بيروت، دخل الرئيس سلام لحضور الاحتفال، فوجد كرسيه بعيداً لعدة سنتمترات وراء كرسي الرئيس شهاب، فوقف وطلب من الضابط المرافق أن يقدم الكرسي إلى مستوى كرسي الرئيس، ورفع الرئيس سلام صوته فسمعه اللبنانيون الذين كانوا يتفرجون على الاحتفال المنقول على شاشة التلفزيون.. ثم جاء الرئيس شهاب فجلس جنباً إلى جنب مع الرئيس سلام.

وإلى جانب السيجار والقرنفلة وتقديم الكرسي.. كان الرئيس سلام يرفض إدخال شفيق محرم إلى مجلس الوزراء. وكان شفيق محرم مستشاراً للرئيس شهاب مقرباً منه إلى درجة أنه كان يدخله إلى مجلس الوزراء. وفي حين كان الرئيس شهاب يتمسك بحضور شفيق محرم على أساس أنه مدير مكتبه أو ممثله الشخصي، كان الرئيس سلام يتمسك بالدستور ويعترض على دخول شفيق محرم إلا إذا استدعي لإبداء ملاحظة، أو رأي للرئيس على أن يخرج بعدها من مجلس

الوزراء. ولما أصر الرئيس شهاب رفض الرئيس سلام أن يعقد الجلسة وخرج منها غاضباً.

ولعلي أستطيع الجزم بأن هذه الأسباب الشخصية فقط كانت وراء استقالة حكومة الرئيس سلام وابتعاده نهائياً عن حكم الرئيس شهاب.

وفي عهد الرئيس شارل حلو (١٩٦٤ - ١٩٧٠) لم يتقدم الرئيس الجديد باسم صائب سلام لا لتشكيل الحكومة، ولا لإجراء مصالحة معه وهو الذي كان قد فتح ملف المخابرات التي كان يسميها الدكتلو.

وانشغل الرئيس سلام في حروب سياسية طاحنة ضد عهد الرئيس شارل حلو الذي كان يعتبر امتداداً لعهد المخابرات وتدخُّل العسكر في السياسة اللبنانية وكان يقول: «ان ثمة أيادٍ خفية هي أجهزة المكتب الثاني، تحاول منذ سنوات أن تغتال النظام الديمقراطي القائم في لبنان.. وقد استباح رجال المكتب الثاني كل الحرمات وظنوا أن في مقدورهم شراء الكبير والصغير، وأن يُذلُّوا كل عزيز بوسائل التنكيل من جهة والإغراء من جهة... إلى آخره.

إلى أن انفجر في العام ١٩٦٨ فقال في حفل إفطار أقامه على شرفه شباب الأحياء البيروتية:

«ان هذا العهد.. عهد شارل حلو ما زال حتى اليوم يعيش عيشاً غير طبيعي، فلا يتمكن من تشكيل حكومة واحدة طبيعية. إلى جانب الفضائح والتبذير والصفقات المشبوهة

والإنفاق على الأزلام والمحاسيب، والرشوة التي أدت إلى إفقار الخزينة».

وقال: «تركنا خزنة الدولة يوم تركنا الحكم وفيها ما يزيد عن خمسمائة مليون ليرة لبنانية في الاحتياط عداً ونقداً... والآن يزيد العجز في الخزانة عن خمسمائة مليون ليرة».

انتهى عهد الرئيس شارل حلو بثورة سياسية عارمة خاضها صائب بك مع رفيقه وصديقه القديم سليمان فرنجية ورئيس مجلس النواب كامل الأسعد وآخرون. وفاز فرنجية برئاسة الجمهورية بصوت واحد هو صوت الثورة السلمية التي قادها صائب بك. وكان صائب بك يعرف فرنجية منذ منتصف العشريات ويعرف خصوصاً شقيقه الأكبر حميد فرنجية الذي لم يكتب له أن يصبح رئيساً للجمهورية وكان أهلاً للرئاسة.

وللعلاقة بين الرئيسين سليمان فرنجية وصائب بك سلام قصة حلوة تعود إلى أواخر العشرينات من القرن العشرين، لن أسمح لنفسي بنقل تفاصيلها التي هي من حق الرئيس الراحل صائب سلام وحده، ولكنني أستطيع أن أقول إن المصادفات جمعت السيدة عنبرة شقيقة صائب بك وزوجة سامح الخالدي والد الشهير وليد الخالدي بإحدى الفتيات اللبنانيات في مصر وكانت هذه الفتاة من أصل طرابلسي - يوناني وتعيش مع عائلتها في مصر. وتشاء المصادفات الغريبة أن تكون شقيقة هذه الفتاة واسمها إيريس خطيبةً ثم زوجة للفارس المغوار سليمان فرنجية ابن العائلة الصديقة لعائلة سلام. وكان صائب

بك يعرف إيريس وعائلتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، فإذا الله تعالى يجعلها زوجة الصديق سليمان فرنجية. ولما كان صائب سلام ومن قبله والده سليم سلام على علاقة مميزة بآل فرنجية، وفي مقدمتهم المحامي اللامع والوطني البارز حميد وشقيقه الصغير سليمان.. فقد أدى كل ذلك إلى بناء علاقة جديدة وحميمة بين صائب سلام وسليمان فرنجية.. وحالما تزوج صائب بك من السيدة تميمة مردم بك، أصبحت العلاقة بين العائلتين تتميز بالمحبة والإخلاص والعمق.

في أثناء «ثورة» ١٩٥٨ التي خاضها صائب سلام ضد الرئيس كميل شمعون وحكومته، كان حميد فرنجية مرشح الثوار، غير أن حميد أصيب بمرض أقعده عن العمل والحركة فأخذت الأمور منحى آخر.

ومر عهدان طويلان من ١٩٥٨ (فؤاد شهاب) حتى ١٩٧٠ (شارل حلو) وصائب بك ينتظر الفرصة السانحة التي جاءت بعد ١٢ سنة، وكان مجيئها ثورة سلمية عارمة. وانتخب مرشح صائب بك سليمان فرنجية، رئيساً للجمهورية (١٩٧٠) لكن صائب سلام هو الذي انتصر، فالرئيس مرشحه، والمهزوم خصمه، واللبنانيون جميعاً معه.. وبسرعة مذهلة أصبح سلام بطل اللبنانيين ومنقذهم من الدكتلو وحكم العسكر والمخابرات. وكان طبيعياً أن يصبح صائب سلام حليف العهد الجديد رئيساً للحكومة جنباً إلى جنب مع السيد الدستوري للعهد.

عاش اللبنانيون ثلاث سنوات ذهبية (من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣). وكانت الديمقراطية تعيش أعظم أيامها، والحرية أحلى لحظاتها. لكن القصر الجمهوري وقصر الحكومة وعلاقات الرئيسين الصديقين لم تكن مشابهة لأفراح الناس وأعراس الحرية والديمقراطية. ومنذ الأسبوع الأول لحكمهما اصطدم رئيس الحكومة صائب سلام برئيس الجمهورية سليمان فرنجية.

وطبقاً لمعلوماتي، فإن الخلاف الذي كان سطحياً جداً في بداياته كان ينطلق من منطلقين:

الأول: ان الرئيس فرنجية المدين للرئيس سلام بانتخابه رئيساً، كان يشعر في قرارة نفسه أن صديقه صائب سلام ورئيس حكومته، يحاول أن يشد حبل الحكم نحوه. وكان هذا في حد ذاته يلهب الجانبين. فمن جهته.. كان الرئيس فرنجية يستمع إلى مستشاريه الذين كانوا يذكرونه بأن رأس الحكم يجب أن يكون أقوى من ذلك بقليل، ومن جهته، كان صائب بك يشعر في قرارة نفسه أنه يمثل المسلمين السنة في لبنان رغم ودّه وصداقته للرئيس فرنجية. ولأنه يمثل السنة بشكل خاص، فلا بدّ له أن يكون محاميهم والمتشدد في نيل مطالبهم. أما رئيس الجمهورية فهو ممثل اللبنانيين جميعاً وليس ممثلاً للموارنة لأن ممثلي الموارنة موجودون في الأكثرية الممنوحة لهم في الحكومة والبرلمان معاً.

وكان هذا الفهم المختلف بين الرئيسين لمهمة كل منهما،

سبباً مباشراً من أسباب الاحتكاك الذي بدأ يأخذ أشكالاً سلبية في وقت لاحق.

وأعلم شخصياً، أن الرئيس فرنجية كان على فروسيته وجبروته، يبدو في منتهى الضعف أمام أبنائه، وتلك صفة الفرسان على أية حال.. فالابن أغلى من الروح، وكان طبيعياً أن يكون الرئيس فرنجية أباً ضعيفاً أمام أولاده لأنه مخزون بالمحبة والأبوّة الصادقة. وكان الرئيس فرنجية يلح على صديقه صائب بك، رئيس الحكومة، ان يترك لابنه طوني (فرنجية) حقيبة وزارية «لأنني أريد أن أراه وزيراً». غير أن صائب سلام كان يحاول المماطلة والتسويف بعبارات رقيقة ودودة كي لا يجرح شعور صديقه الرئيس. ولما كرر الرئيس مطلبه قال له صائب بك انه لا يجوز لنا أن نسعى لتوزير أبنائنا، لأننا نكون بذلك قد ارتكبنا خطأين:

الأول: اننا فتحنا سابقة غير مستحبة.

والثاني: ان لبنان مليء بالزعماء الذين يريدون مثلك أن يروا أبناءهم وزراء. وهذا لا يجوز.

وكرر الرئيس فرنجية الطلب، وكرر الرئيس سلام الاعتذار، ثم ما لبث أن أصبح الاعتذار رفضاً باتاً دونه استقالته واستقالة حكومته.

* * *

بقيت الأمور بين شد وجذب، وعذاب متبادل بين

الرئيسين طوال السنوات الثلاث الأولى من عهد الرئيس فرنجية. وقد حاولت السيدتان ايريس فرنجية وتميمة سلام أكثر من مرة إصلاح ما بين الزوجين بمساعدة الأولاد، وهم جميعاً عائلة واحدة تقريباً منذ أربعين عاماً.. إلا أن الأمور كانت أشد تعقيداً مما تصورت السيدتان.

وأخيراً، انفجر الخلاف، واضطر صائب بك إلى الاستقالة. وكان ذلك اثر العدوان الاسرائيلي على ثلاثة من مناضلي الكفاح الفلسطيني في بيروت واغتيالهم على يد فرقة كوماندوس اسرائيلية بقيادة الكولونيل (يومها) إيهود باراك في العاشر من نيسان/ ابريل ١٩٧٣.

وكان رأي الرئيس سلام أن الواجب يحتم على قائد الجيش (العماد اسكندر غانم يومها) الاستقالة لأنه لم يتصدَّ للمهاجمين رغم أن الجيش كان عنده أوامر من الحكومة منذ عدة شهور بالدفاع عن لبنان. وقال الرئيس سلام إنه اتصل هاتفياً بقائد الجيش الذي كان نائماً فأيقظوه، وأبلغه أن في المدينة هجوماً إسرائيلياً. وبعد وقت قصير قال قائد الجيش للرئيس سلام ان معلوماته تفيد بأن صوت الرصاص المسموع هو أصداء معركة فلسطينية ـ فلسطينية. ثم اتصل سلام مرة أخرى فقال لقائد الجيش إن عدواناً اسرائيلياً قد نفذ ضد بعض الفلسطينيين وطلب منه أن يتصدى للمهاجمين، فقال القائد ان الجيش اللبناني لحق بالمعتدين لكنه لم يتمكن منهم.

وخلاصة رأي صائب بك ان على قائد الجيش أن يستقيل أو أن يحاكم المسؤولين عن التقصير.. أو أن يُقال.

اما الرئيس فرنجية فكان رأيه ان الجيش فعل ما يمكنه فعله، والمسألة لا تحتاج إلى استقالة أو إقالة قائد الجيش.

ولأن النفوس كانت مشحونة، وضع الرئيس سلام أحد شرطين على الرئيس فرنجية:

ـ أنا أو القائد اسكندر غانم.

ولم يتمكن فرنجية من إقناع رئيس حكومته بالتراجع عن قراره. ولما ألحّ صائب بك، وافق فرنجية على منح الرئيس سلام الحرية.. اي: الاستقالة فاستقال، منهياً حقبة ذهبية من التفهم والتفاهم والصداقة الحميمة مع الرئيس سليمان فرنجية.

* * *

تسلم الرئيس الياس سركيس رئاسة الجمهورية في ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٧٦ ولبنان ممزق ومنقسم على بعضه إلى دويلات وعصابات، وجيوش، وميليشيات داخلية وخارجية، ومع انتخاب الرئيس سركيس دخل الجيش السوري إلى لبنان لدعم الحكم الجديد، فخرج صائب بك من الحياة السياسية إلى حد كبير، وبقي كذلك إلى أن غزت إسرائيل لبنان في أواخر عهد الرئيس سركيس (يونيو ١٩٨٢) ودمرت المنظمات الفلسطينية، ودمرت نصف مدينة بيروت ومعظم مخيماتها،

واحتلت العاصمة ولم تتوقف عن الزحف إلا بعد أن احتلت البلاد، واشترطت إخراج الفلسطينيين من لبنان.

وخاض الرئيس سلام مفاوضات خروج الفلسطينيين، وهي المفاوضات التي جرت بين الحكومة اللبنانية عبر رئيسها شفيق الوزان، والفلسطينيين عبر رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات المقرب من صائب بك.. والولايات المتحدة الأميركية ممثلة بالمبعوث الرئاسي فيليب حبيب (وهو من أصل لبناني احتفظ بلهجته اللبنانية، وكان يحب أكلة المجدرة ويطلبها كلما هدأت النار قليلاً) وإسرائيل ممثلةً بوزير الدفاع قائد الهجوم على لبنان اريبل شارون.. ورئيس الحكومة مناحيم بيغن.

وكان الرئيس سلام بارعاً كعادته في التفاوض، فحفظ حق لبنان وسيادته، وحافظ ـ قدر الإمكان ـ على كرامة الفلسطينيين.. وخرجوا من لبنان على عشر دفعات ثم غادر عرفات بيروت في ١٩٨٢/٨/٣٠ على متن باخرة تابعة للأمم المتحدة إلى اليونان.

* * *

بعد الرئيس سركيس، انتخب الشيخ بشير الجميل رئيساً لكنه اغتيل قبل عشرة أيام من استلامه سدة الرئاسة. ولكي لا تقع البلاد في فراغ دستوري، إضافةً إلى وقوعها بين أيدي الشياطين والسفاحين، اجتمع المجلس النيابي وجرى انتخاب الشيخ أمين الجميل رئيساً للجمهورية.

ومثلما ذكرت في مطلع هذا الباب، كان من الممكن أن تسير العلاقات بين الرئيس الجميل وصائب بك على أحسن ما يرام، لكنها كانت تواجه صعوبات داخلية، وضغوطات تفرضها الظروف الخارجية والمستشارون الذين لا يريدون لأحدٍ أن يكون صديقاً لأحد.

على أنه لا يمكن تجاهل الأسباب الشخصية أيضاً، وهي أسباب أشهد أن الرئيس سلام حمّلها في وقت من الأوقات أكثر من طاقتها، فقد كان شديد الحساسية تجاه الرئيس أمين الجميل الذي لم يكن في نيته (وأنا أجزم بذلك) الإساءة إلى الرئيس سلام.

لكن لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار أن الرئيس سلام كان محقاً في عتبه على الرئيس الجميل، وعلى والد الرئيس الشيخ بيار، وعلى الرئيس كميل شمعون ومعظم زعماء الطائفة المارونية في تلك الحقبة من تاريخ لبنان.

- ففي ١٧/٨/١٩٨٢ عقد اجتماع في القصر الجمهوري ترأسه الرئيس الياس سركيس وحضره الرؤساء صائب سلام وتقي الدين الصلح وكميل شمعون، والشيخ بيار الجميل. وكان الغرض الأساسي من هذا الاجتماع، محاولة إقناع الرئيسين سلام والصلح بتأييد ترشيح الشيخ بشير الجميل لرئاسة الجمهورية ردًّا على الموقف الفيتو الذي كان أعلنه الرئيس رشيد كرامي (الزعيم السني الكبير) ضد بشير معلناً «ان الرئيس الجديد يجب ألا يكون على علاقة بالعدو الاسرائيلي».

لم يكن الرئيس صائب سلام في وارد تأييد بشير الجميل، لكنه نزل عند رغبة الرئيسين سركيس وشمعون والشيخ بيار فقرر ألّا يقف حجر عثرة في وجه ترشيح أو انتخاب بشير. فصدر بيان عن المجتمعين جاء فيه أنهم «يدعون إلى انتخابات رئاسية حرة وديمقراطية» وكان معنى ذلك أن الرئيس سلام وافق أن يقف على الحياد، لا مع بشير ولا ضده.. ولم يكن بشير الجميل يرغب بأكثر من ذلك. فقد كان المطلوب أن يلين الرئيس سلام موقفه منه ففعل.

- وفي ٢٨/٨/١٩٨٢ أعلن الرئيس سلام للصحفيين ان «على الرئيس الجديد (المنتخب قبل ٥ أيام) أن يبرهن أنه رئيس لكل لبنان».. وكان معنى ذلك أن صائب بك يريد أن يوحي بموافقته على الشيخ بشير على رغم أنه لم يذهب إلى المجلس لانتخابه. ولم يكن بشير يريد أكثر من ذلك.

- وفي ١/٩/١٩٨٢ استقبل الرئيس صائب سلام في منزله بالمصيطبة المؤتمر الإسلامي الموسع، بحضور وليد جنبلاط ونبيه بري، وصدر بيان عن هذا المؤتمر أعلن عن تشكيل لجنة للحوار مع الرئيس المنتخب الجديد.

وكان هذا أيضاً موقفاً ليّناً من قبل الرئيس سلام تجاه الرئيس المنتخب الشيخ بشير. ولم يكن الشيخ بشير يريد أكثر من ذلك.

- وفي ٢/٩/١٩٨٢ قال سلام انه «يأمل بأن لبنان سيعود أفضل مما كان عليه بالتعاون بين فريقيه المسلم والمسيحي».

وكان بهذا التصريح أيضاً يحاول أن يتقرب بكبرياء من الرئيس الجميل والموارنة بشكل عام. ولم يكن الشيخ بشير ولا الشيخ بيار يريدان أكثر من ذلك.

● وفي ١٩٨٢/٩/١١ اجتمع الرئيس صائب سلام بالرئيس المنتخب بشير الجميل بدعوة من رئيس الجمهورية الياس سركيس وتحادثا طويلاً وتناولا الغداء على مائدة سركيس. وقال صائب بك: «ان الاجتماع كان موفّقاً حصل فيه تفهم وتفاهم وثقة متبادلة». وكان معنى ذلك ان الرئيس سلام قرر أن يوالي العهد المقبل ويدعمه إسلامياً... ولم يكن الشيخ بشير يريد أكثر من ذلك.

● في ١٩٨٢/٩/١٢، وتحت ضغط الشارع الإسلامي الذي كان يريد تفسيراً من صائب بك لمغزى زيارته للشيخ بشير واجتماعه به، قام الرئيس سلام بزيارات لمفتي لبنان الشيخ حسن خالد، وللشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى، لاطلاعهما على نتائج وظروف اجتماعه بالرئيس بشير الجميل فأقنعهما بأنه التقاه على أساس من التفهم والتفاهم لكي يمكن إعادة بناء لحمة الوحدة اللبنانية الوطنية.

● في ١٩٨٢/٩/١٤ اغتيل الرئيس بشير الجميل قبل أن يتسلم الرئاسة بعشرة أيام. ودفن سرّه معه، وغاب عن الساحة اللبنانية، وغاب معه ما كان يمكن أن يفعله وما كان يمكن أن يفشل في تحقيقه.

● في ١٩٨٢/٩/١٧ صرح الرئيس سلام «بأن تل أبيب عندما وجدت أن بشير الجميل لن يكون ألعوبة في يدها عمدت إلى التخلص منه».. وكان في هذا التصريح قمة الاعتراف بأن بشير الجميل كان في نظر صائب بك لبنانياً مخلصاً أراد أن يحقق للبنانيين مستقبلاً أفضل وكان بهذا الإعلان، يقف على نقيض عدد كبير من اللبنانيين، وخصوصاً في الجانب الإسلامي.

● في هذا اليوم بالذات ١٩٨٢/٩/١٧ وقبله بيومين أو أكثر أو أقل، وقعت مذبحة صبرا وشاتيلا حيث قتل أكثر من ١٧٠٠ فلسطيني ولبناني بطريقة وحشية، بل في منتهى الوحشية، لأنها شملت مواطنين آمنين غير مسلحين، ومئات من النساء والأطفال والطاعنين في السن، باعتبار أن الرجال والشباب كانوا قد غادروا لبنان ضمن اتفاق إخراج الفلسطينيين من لبنان من ١٩٨٢/٨/٢١ إلى ١٩٨٢/٨/٣٠.

قصة غريبة جداً

كانت المذبحة قاسية وهمجية إلى درجة أن زعماء بيروت الغربية من المسلمين السنة قرروا أن يثأروا لهذه العملية. وذهب بعضهم إلى حد التفكير بهجوم مسلح مماثل على اللبنانيين المسيحيين المقيمين في بيروت الغربية. وهم المسيحيون الذين ولدوا هناك أباً عن جد، أو الذين يعيشون في المنطقة الغربية تحت حماية أهالي بيروت الغربية من العائلات السنية العريقة، وخصوصاً منهم الرئيس سلام وزعامته التي لم يكن لها مثيل في بيروت. وكان عدد هؤلاء المسيحيين يزيد عن ٣٥ ألف مواطن.

وقد روى لي الرئيس سلام شخصياً، عام ١٩٩٠ في منزله بجنيف، بينما كنا نكتب، أنا وهو، مذكراته كيف كانت مشاعر بعض زعماء بيروت الغربية تغلي وتطالب بالثأر فقال:

ـ «في اليوم التالي لاكتشاف المذبحة في ١٨/٩/١٩٨٢ زارني في بيتي عدد من زعماء أحياء ومناطق بيروت الغربية. وكانوا جميعاً في حالة غليان وغضب لم يسبق لهما مثيل حتى في أيام حرب ١٩٥٨. وعلى الفور أدركت أنهم قادمون إليّ بقرارات صعبة.

وقال أحدهم وكأنه يعطيني علماً فقط:

ـ إن الجريمة كبيرة يا دولة الرئيس، وقد ذهب ضحيتها ثلاثة أو أربعة آلاف فلسطيني ولبناني من المسلمين بطريقة

وحشية همجية. وعرفنا من مصادر متعددة أن الكتائب والقوات اللبنانية والميليشيات المسيحية هي التي ارتكبت المجزرة. فإذا لم نضع لهؤلاء المجرمين حداً فإنهم قد يهاجمون بيوتنا ونساءنا منذ الغد. ولذلك، قررنا أن نطرد المسيحيين من بيروت الغربية، ولن نكون مسؤولين عما يمكن أن يجري لهم ولأبنائهم.

وسُقِط في يدي (والحديث لصائب بك) وأدركت أن زواري آتون بقرار متّخذ ومهيأ سلفاً. ومرت في خاطري لحظات صعبة تخيّلت فيها مشهد بيروت الغربية غداً أو اليوم إذا قرر المسلمون أن يتخلصوا من أبنائها المسيحيين. ولم يكن في مقدوري أن أردع زواري، أو أن أقف ضدهم لأن الموقف كان ساخناً إلى درجة أنه لم يكن للكلام والمنطق أي مكان في نفوسهم.

وأخيراً، قررت أن ألجأ إلى الدَهَاء والحيلة، في محاولة يائسة لكسب الوقت، وتبريد الأعصاب الملتهبة. فطلبت من محدثي والقيادات المرافقة له أن يمنحوني بعض الوقت كي أتصل بالرئيس الأميركي رونالد ريغان، أو بالسيد جورج بوش (رئيس المخابرات المركزية في حينها) لأستوضح من أحدهما عن الموضوع، فلا شك أن ريغان يعرف ما جرى بالحرف والدقيقة.

ونظر زواري، أحدهم إلى الآخر، وقالوا كأنهم رجل واحد:

ـ تفضل.

فاعتذرت منهم، ودخلت إلى مكتبي الصغير الملاصق للصالون وتبعني ابني تمام بناءً على إشارة مني. ومن المكتب صرخت بعامل الهاتف في الطابق الأرضي بصوت عال كي يسمعني كل من في الصالون.. قائلاً:

ـ أطلب لي البيت الأبيض.

والتفتُّ إلى تمام بسرعة وقلت له:

أطلب التلفزيون كي يأتي إلى هنا لأنني سأدلي بتصريح هام.

... وعدت إلى الصالون فرأيت الاخوان وقد انفرجت أساريرهم، وراحوا ينظرون بعضهم إلى البعض الآخر بشيء من الاعتذار، وكنت أقرأ ما يدور في أذهانهم بسهولة وهو أن صائب سلام الذي يزورونه الآن قادر أن يطلب البيت الأبيض والرئيس ريغان كما يطلب واحداً منهم.

والحقيقة أنني لم أطلب أحداً، ولكنني كنت أبحث عن سبب يجعلني أطلب تأجيل هجومهم على مسيحيي المنطقة الغربية دون أن أُتَّهم بالتواطؤ أو بالميل إلى الكتائب.

وأحسست أن النفوس التي تغلي من الغضب والشعور بالثأر قد أخذت حرارتها تهبط قليلاً. وبعد دقائق رنّ جرس الهاتف في الصالون، فقلت:

ـ لعله البيت الأبيض.

وقال الزوار:

ـ لا شك أنه هو. تفضل يا صائب بك.

وتفضلت، وذهبت إلى مكتبي وأخذت السماعة ورحت أتحدث بصوت عال خلت معه أن الذين في الصالون، والذين في المصيطبة جميعاً يسمعونني.

وقلت بالانكليزية:

ـ هنا صائب سلام من بيروت. أود أن أكلم الرئيس رونالد ريغان. ثم أخفضت صوتي، ورحت أتحدث لمدة دقيقة أو أكثر بقليل، وأقفلت السماعة وعدت إلى الصالون. فقال أحد الزوار:

ـ هاه. ماذا كان جواب البيت الأبيض يا صائب بك؟

ونظرتُ إلى تمام، استوضحه أخبار التلفزيون، فأومأ لي أنهم في الطريق، فقلت لزواري:

ـ دقائق ونعرف حقيقة الأمر من السيد جورج بوش رئيس المخابرات الأميركية. فقد علم بمطلبنا وأخذه على محمل الجد والسرعة.

سمعت ضجيج الفريق التلفزيوني على درج المنزل، فرنّ جرس الهاتف مرة أخرى، ودخلت إلى مكتبي وغبت قليلاً ثم دخلت على زواري أنا وعدسات التلفزيون والصحافيون في لحظة واحدة.

فوقفت أمام الجميع وقلت موجهاً كلامي إلى التلفزيون كي يسمعني القاصي والداني وقلت:

إن حزب الكتائب بريء من مجزرة صبرا وشاتيلا. فالذي ارتكبها إسرائيل... (إلى آخره).

وخرج التلفزيون، ثم خرج زواري وقد هدأت أعصابهم وتأكدوا، بالدليل القاطع، أن المجزرة لم يرتكبها مسيحيو بيروت الشرقية كي ننتقم منهم بمسيحيي الغربية.

... وهكذا أنقذت أبناء بيروت الغربية من أخواننا المسيحيين من مجزرة رهيبة كانت على وشك الوقوع».

(انتهى حديث الرئيس سلام).

في اليوم التالي، عقد اللقاء الوطني الإسلامي اجتماعاً في منزل الرئيس سلام (١٩/٩/١٩٨٢) وصدر عنه بيان استنكر فيه الاجتياح الإسرائيلي لبيروت الغربية، والمجازر الوحشية التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية في صبرا وشاتيلا وحمّل الولايات المتحدة مسؤولية هذه المجازر وطالب باستقدام قوات دولية على الفور لحماية اللبنانيين.

بهذا الأسلوب، حمى الرئيس صائب سلام علاقته بالمسيحيين اللبنانيين، وحافظ على الحد الأدنى من الوحدة الوطنية التي كان يؤمن بها بعد إيمانه بالله.

حتى قبيل مقتل الرئيس المنتخب بشير الجميل كانت علاقات الرئيس صائب سلام بالرؤساء الموارنة تتراوح بين

شدّ وجذب، وصداقة، ثم خِصام، ثم قطيعة كاملة، إلى أن التقى بالرئيس بشير في القصر الجمهوري بدعوة من الرئيس الياس سركيس. كما ذكرت سابقاً فأحس صائب بك أن في بشير الجميل صفات الزعيم الملهم، فأعجب به وأيده تأييداً كاملاً كما ورد قبل قليل.

وفي وقت لاحق، قال لي الرئيس سلام، ونحن نكتب معاً مذكراته:

- كنت أحسب أن بشير الجميل قادرٌ على تحقيق الوحدة اللبنانية وإعادة لبنان إلى مستواه العربي والدولي، لكنني الآن، وبعد مرور أكثر من عشر سنوات، على مقتله، أرى أن الرئيس بشير كان يمكن أيضاً وبنفس المقدار أن يؤجج الأزمة اللبنانية ويعود بها إلى نقطة الصفر.

ولعل السبب الذي جعل صائب بك يتراجع عن إعجابه المطلق بالرئيس بشير، وثقته به، هو علاقته بالرئيس أمين شقيق بشير الأكبر، وهي العلاقة التي بدأت بثقة مطلقة ومحبة واحترام متبادل.. ثم أخذت تذبل وتذبل إلى أن انتهت بقطيعة وعداء لم يسبق لهما مثيل إلا بين الرئيس سلام والرئيس فؤاد شهاب.

أسرار وأخبار بين الرئيسين: الجميل وسلام

سأورد بعض أهم محطات العلاقة بين الرئيسين بحلوها ومرّها.

المحطة الأولى: الصدام في جنيف

كان الرئيس أمين الجميل يحاول، بما يملك من معطيات ـ وهي قليلة في أية حال ـ أن ينهض بلبنان بعد أن انسحبت القوات الإسرائيلية الغازية، من بيروت ومعظم الأراضي اللبنانية ودخلت القوات المتعددة الجنسيات ابتداء من ٢٧ و٢٨ و٢٩ سبتمبر ١٩٨٢. وفي جلسة معه (لم تكن للنشر) قال لي الرئيس أمين الجميل إنه يحكم بلداً لا يعرف عن ارتباطاته الدولية الجديدة أي شيء. وقال عندما بدأت أعاتبه لأنه لم يجمع كبار الزعماء اللبنانيين حوله:

ـ «اسمع. إنني أرث إرثاً ثقيلاً فيه من الأخطاء والفظائع ما يجعلني عاجزاً عن معرفة من أين يجب أن أبدأ. إن أمامي الآن مهمة تنظيف البيت من أخطائهم وارتكاباتهم وفظاعاتهم. وسوف ادخل في مفاوضات مع إسرائيل لا أعرف خطوطها ولا أعرف كيف ولماذا ومن وراءها بالضبط».

وكان رأيي أن يجمع في القصر الجمهوري كبار زعماء لبنان الموارنة والمسيحيين والمسلمين والدروز ويشرح لهم الوضع على الطبيعة ويستمع إلى آرائهم ويشركهم في مسؤولية النهوض بالبلاد.

ومن هنا كان الرئيس سلام يبدو عاتباً على العهد الجديد بعض الشيء.

... وأخيراً قرر الرئيس الجميل جمع هؤلاء الزعماء خارج لبنان كي لا يقع أحد منهم تحت تأثير خارجي.

وبدأت التحضيرات لمؤتمر جنيف للحوار الوطني اللبناني، وانعقد المؤتمر من ٣١/ ١٠/ ١٩٨٣ إلى ٤/ ١١/ ١٩٨٣. وعلى هامش هذا المؤتمر التقى الرئيسان أمين الجميل وصائب سلام بحضور السيد عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري الذي كان يشارك في المؤتمر كمراقب شأنه في ذلك شأن سفير الدولة السعودي محمد ابراهيم، وسفير السعودية في لبنان أحمد الكحيمي، ورفيق الحريري بصفته السعودية.

بدأ الحديث الثلاثي (بين أمين وصائب وعبد الحليم) بشيء من العتاب الملغوم. فالسيد عبد الحليم خدام كان يعتقد في قرارة نفسه أن الرئيس سلام هو درع الرئيس الجميل السني، ومشجّعه على المفاوضات مع إسرائيل. وكان الرئيس سلام يريد أن يغتنم المناسبة كي يؤكد لخدام أنه ورث تركة صعبة بعد اجتياح لبنان، وأنه لا يستطيع أن يترك لبنان غارقاً...

وتدخل الرئيس الجميل لتقريب وجهات النظر... وكان الجو حميماً والحوار هادئاً وكُبارياً، فقال الرئيس سلام موجهاً حديثه للسيد خدام مازحاً:

ـ إنني أفعل ما يرضي ضميري انطلاقاً من إيماني بأن

لبنان محكوم بواجب التفهم والتفاهم بين جناحيه المسلم والمسيحي.

وقال الرئيس الجميل:

ـ نعم إن هذا هو طريقنا الوحيد.

وقال سلام موجهاً كلامه للسيد خدام:

ـ نفعل ذلك لمساعدة أخينا الرئيس أمين الجميل رغم أنه مقصّر معنا ومع مطالبنا في الشارع البيروتي.

وقال الرئيس الجميل مازحاً:

ـ من أين لي أن أساعدكم يا دولة الرئيس؟ يكفي أن المملكة السعودية لم تقصر معكم.

وتجهم وجه صائب بك، وشعر أن الرئيس الجميل يريد أن يعيّره بشيء ما أمام النائب خدام. فقال بشيء من العصبية:

ـ عماذا تتكلم يا رئيس. قل.. قل ما عندك أمام عبد الحليم خدام. قل كي لا يظن أننا نتحدث بالألغاز.

وقال الرئيس الجميل مازحاً أيضاً:

ـ ألم تصلك المساعدة السعودية للمقاصد، لقد بلغني أنها وصلت منذ وقت قريب، فلماذا تطلب من الدولة المفلسة؟

وقال الرئيس سلام بغضب:

ـ هل سمعت يا عبد الحليم؟ هل سمعت ماذا يقول

الرئيس؟ إنه يتهمني بقبض المال من السعودية وهو يعرف أن هذا المال هو تبرع يأتي مباشرة إلى جمعية المقاصد، ونحن نعلن عنه في حينه وعلى صفحات الجرائد. فنحن لا نفعل شيئاً تحت الطاولة.

وقاطعه الرئيس الجميل قائلاً:

ـ أرجو عفوك يا دولة الرئيس فأنا لا اقصد اتهامك لا سمح الله، إنني أمازحك فقط كي أخبرك أن الخزينة فارغة.

لكن الرئيس سلام لم يقتنع بهذا العذر، وأضاف إلى جعبته سبباً جديداً للخلاف مع الرئيس أمين الجميل.

المحطة الثانية: الحكومة التي ماتت قبل أن يُحبل بها

في خريف ١٩٨٧، ولم يكن قد بقي من عهد الرئيس أمين الجميل سوى عام واحد فقط، بدأ الرئيس استعداداته لمغادرة بيروت للمشاركة في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وكنت أكتب إليه دورياً، مرة في الأسبوع، أو مرة في الشهر، إلى جانب الاتصالات التلفونية شبه اليومية. وكان وضع الرئيس الجميل في الحكم في تلك الأيام في غاية الحساسية، ويمكن القول إن معظم الأطراف قد تراجعوا عن دعمه فغرق لبنان في حالة اقتصادية بائسة، وحالة سياسية يائسة. وفي هذا الجو الخانق، فعلاً، خرجت إلى النور فكرة

تشكيل حكومة قوية تستطيع أن تشكل صدمة كهربائية للجميع، وتعمل بصلاحيات مطلقة، مدعومة مئة بالمئة من رئيس الجمهورية.

وكنت أبلغ الرئيس شيئاً فشيئاً بانعكاسات هذه الفكرة الجهنمية، خصوصاً عندما بدأنا بدراسة تشكيلة حكومية سوپر عادية برئاسة الرئيس صائب سلام المقيم في جنيف، على أن يأخذ على عاتقه إقناع صديقه العميد ريمون إده المقيم في باريس، (والذي يقف على خلاف حاد مع الرئيس الجميل) بحمل حقيبة وزارة الخارجية، ولم يكن باقي التشكيلة الحكومية بهذه الحدة بعد أن دخل فيها اسما صائب بك والعميد إده.

وأستطيع أن أزعم اليوم، بعد ثلاثة عشر عاماً على هذه الفكرة المجنونة، أنها كانت عملاً من دون منطق، لكن الهدف كان القيام بعمل خارق غير منطقي على كل حال. وكان أكثر ما في الفكرة من عجب أن تنفيذها في لبنان مستحيل استحالة تامة. وعلى رغم أن هذه الأفكار كانت اقرب إلى الصورة الكاريكاتورية من الحقيقة، فقد كان الوضع اللبناني البائس الحزين الموجع، يسمح للعقل أن يتصور حكومة للبنان من هذا الحجم وبهذا الشكل.

فقد كانت العلاقات اللبنانية ـ اللبنانية سيئة للغاية. وكان الخلاف بين الرئيس الجميل ورئيس حكومته رشيد كرامي على أشده. والعلاقات اللبنانية ـ السورية على مستوى

الرئاسة في أدنى درجات التفاهم. وكانت واشنطن لا تنفك تقترح على لبنان، ورئيس لبنان مبادرة لبنانية للتفاهم الداخلي، ومن ثمّ المصالحة مع سوريا.

وكان الرئيس الجميل وضع ورقة مبادئ للإصلاح السياسي والدستوري في مطلع الصيف من ذلك العام (١٩٨٧)، جاء فيها التزام الرئيس بعدد من الخطوات، نصت واحدة منها على ما يلي:

ـ تستأنف المفاوضات السورية ـ اللبنانية على المستوى المناسب، للاتفاق نهائياً على تفاصيل الخطوات الإصلاحية.

ـ تُقبل استقالة الحكومة الحالية (حكومة كرامي) ويعمد رئيس الجمهورية إلى تأليف حكومة جديدة في فترة لا تتجاوز العشرين من أكتوبر ١٩٨٧، على أن يكون برنامجها مكرساً للإصلاح الدستوري الذي يكون قد جرى الاتفاق عليه مع الحكومة السورية. (لكن شيئاً من هذه الورقة لم يحصل، فالمفاوضات مع سوريا لم تستأنف على المستوى المناسب. وقبل ٢٠ أكتوبر بخمسة شهور اغتيل رشيد كرامي، في مطلع يونيو ١٩٨٧).

في غمرة هذه التطورات المتلاحقة، ظهرت فكرة تشكيل حكومة برئاسة الرئيس صائب سلام. ذلك أن الرئيس الجميل كان يشعر في داخله أن الضغوط الأميركية واللبنانية والسورية عليه تكاد تجعله رئيساً تحت سقف حكومته، لا رئيساً يحمي حكومته ويكون رأسها.

وأخذت على عاتقي محاولة إقناع الرئيس سلام بالمشاركة في حكومة بهذا المعنى، لكنني قبل أن أذهب إليه في جنيف، تشاورت مع الرئيس أمين الجميل، فقطع لي عهداً بأنه مستعد لتشكيل حكومة جديدة برئاسة الرئيس سلام منذ الغد. وأخيراً قال لي:

ـ إنني مستعد لفتح صفحة جديدة مع الرئيس صائب سلام. فأنا أحبه وأحترمه وأعرف كم كانت تضحياته معنا كبيرة. ولا تنس أنني نزلت عند رغبته فتمّ تعيين صهره خلدون صوبره في أنترا.

وسليم سلام في الميدل إيست.

وبعد لوزان كنت أرغب بتوزير تمام بك، لكن الرئيس رشيد كرامي لم يوافق على ذلك وقال لي: أترك لي اختيار ممثلي المسلمين في الحكومة.

وكان صائب بك معنا عندما قررنا أن نجري مفاوضات سياسية مع إسرائيل منذ ٢٨/١٢/١٩٨٢. وقد وضع ثقله كله معنا في ما قررنا. ووقف إلى جانبنا، وسوف لن أنسى له ذلك أبداً. لكن المفاوضات انتهت في ١٧ أيار ١٩٨٣ كما أصبح معروفاً.

وفي العام نفسه (١٩٨٣) ذهب إلى واشنطن والتقى الرئيس ريغان، ممثلاً شخصياً لرئيس الجمهورية مطلق الصلاحيات. وهذه أدلة على ثقتي به وحبي واحترامي له.

. . . وهكذا، وفي غمرة هذه التطورات المتلاحقة، كما ذكرت قبل قليل، خرجت فكرة تشكيل حكومة جديدة برئاسة الرئيس صائب سلام.

وقلت للرئيس الجميل، ونحن في مطلع صيف ١٩٨٧:

ـ أرجو، وأنت في طريقك إلى الخارج، أن تنزل في باريس لبعض الوقت، فأنا آمل أن يتم لقاء ودّي بينك وبين الرئيس سلام.

وقال الرئيس:

ـ قد يكون صعباً، من الناحية الرسمية والبروتوكولية، أن أنزل في باريس، ثم أذهب إلى سويسرا. وربما سيكون صعباً على دولة الرئيس سلام أن يأتي إلى باريس من جنيف.

وقلت:

ـ معك حق. لقد فاتتني هذه الحواجز البروتوكولية، لكن.. مقصدي كان أن نتلفن معاً للرئيس سلام وتُجري معه حديثاً وديّاً بالهاتف.

وقال الرئيس الجميل:

ـ أنا كما تعلم، لست معقّداً لهذه الأمور. فإذا كان الاتصال بصائب بك مفيداً لنا جميعاً، فسوف يسعدني ذلك.

وقلت:

ـ شكراً. على بركة الله وإلى اللقاء في باريس.

وللحال، ذهبت بسيارتي إلى جنيف، والذهاب من باريس إلى جنيف بالسيارة أقرب من الذهاب من بيروت إلى بعلبك على كل حال.

وفي جنيف... صارحت صائب بك بكل شيء. فقد عودني أن أكون صريحاً معه إلى غاية غير محدودة، لكنني كتمت عنه خبر اتصالي بالرئيس الجميل في خصوص من سيتصل بمن بالتلفون، فمثل هذه الأمور يجب ألاّ يبوح بها الوسيط لكي لا تؤذي الطرفين معاً.

وقال صائب بك:

ـ والله، أنا ليس عندي مآخذ شخصية على الرئيس الجميل. بل على العكس، فقد ساندته وساعدته بكل قواي، لكن، أنت تعلم، كيف خاطبني في لوزان وكيف أراد أن يحرجني أمام عبد الحليم خدام.

وقلت:

ـ هذه الأمور ثانوية يا صائب بك أمام الأمور الجوهرية. وعندما تكون مصلحة لبنان هي الهدف، فلا أحد يستطيع أن يقلل من قدراتك ودماثة طبعك، وسلامة نواياك. أريد منك فقط أن تعدني بأنك مستعد لمساعدة الرئيس الجميل على بدء صفحة جديدة، بحكومة جديدة وعقلية جديدة، ووفاق وطني حقيقي.

وقال صائب بك:

ـ لن أتردد في خدمة لبنان.

وعدت إلى باريس في اليوم التالي، وأنا مملوء بالفرح والغبطة. فالرئيس الجميل موافق، والرئيس سلام مستعد.. ولم يعد سوى أن تركض الأيام ويصل الرئيس الجميل إلى باريس.

ووصل الرئيس الجميل، وكنت مع عدد قليل جداً من مستقبليه على المطار. وفي المطار قضى بعض الوقت وأجرى بعض اللقاءات.. ولما جاء دوري قال لي:

ـ نلتقي عندي في البيت.

وكان الرئيس الجميل يملك شقة في باريس منذ أوائل السبعينات مؤلفة من صالون وسفرة، ومطبخ وغرفة نوم، في حدود ٦٠ متراً مربعاً. وكان يستخدمها في ما يُسمى بالفرنسية «محط قدم» في ذهابه وإيابه من بيروت إلى أوروبا وبالعكس عندما لم يكن رئيساً للجمهورية. وما زال حتى اليوم يسكن في هذه الشقة. وعندما كبرت العائلة، وأصبح جداً لثلاثة أحفاد كانت الشقة تغص بأفرادها خصوصاً في الأعياد عندما يزوره الأبناء والأحفاد والصهر والكنة ومدبّرة المنزل، فيصبح عددهم عشرة أشخاص، فتضيق بهم الشقة فيلجأ بعضهم للمبيت في الفنادق.

* * *

ذهبت إلى الرئيس في شقته، وكانت السماء تمطر في باريس ونحن في أيلول، وبالمناسبة: ليس في الدنيا أجمل من شتاء باريس وثلوجها، فلشدة نظافة المدينة، يكاد مطرها

يشبه رش العطر على الوجوه والملابس. وعندما يهبط الثلج يكاد المرء يشعر، في باريس، أنه ينظر إلى الأرض من السماء، وليس إلى السماء من الأرض.

قرعت الجرس من المدخل الرئيسي، فرد الرئيس شخصياً.. وقال:

- شرّف.

فشرفت. وسلمت عليه وكان عنده أحد مسؤولي السفارة اللبنانية في باريس. وما لبثنا أن دخلنا في الموضوع، فقلت للرئيس بعد أن طمأنته على أن الأمور تسير كما نشتهي:

- سأطلب صائب بك من هنا وأترك السماعة لكما.

فقال:

لا بأس.

واتصلت بصائب بك: صباح الخير، كيف حالكم.. كيف صحتك.. إلى آخره. وأخيراً قلت:

- إنني أحدثك من منزل الرئيس الجميل في باريس. وهو يريد أن يصبّحك.

وأخذ الرئيس السماعة، وبدأ مع صائب بك حديثاً بروتوكولياً.. ثم أخذ يتجه نحو الدفء والعاطفة. وكنت أجلس قبالة الرئيس، وأكتب على ورق أبيض بخط عريض، بعض الملاحظات والتمنيات.. ومن بينها مثلاً أنني تمنيت

على الرئيس أن ينادي صائب بك بكلمة: عمو، لكن الرئيس الذي اقتنع بالفكرة لم يقل له عمو، بل قال:

- ... فأنا أعتبرك بمثابة أخ لوالدي.

وكنت، لشدة قربي من التلفون، أكاد أسمع كلمات صائب بك كلمة كلمة. وسمعته يقول بحرارة شديدة.

- أنت تعلم، والله يعلم، كم كنت محبّاً ومعجباً بوالدك الشيخ بيار الصديق، المناضل، الوطني..

.. وسرعان ما بدأ جو الحديث يأخذ أبعاده العائلية، فشعرت أنني لم أعد مفيداً.. فتراجعت عن المقعد قليلاً، وذهبت إلى النافذة الزجاجية التي تشكل جدار البيت بكامله، ورحت أتفرج على السماء وهي تسكب على باريس والباريسيين ماء نقياً نظيفاً يشبه ماء العيون.

- وأخيراً انتهت المكالمة بعد أن قدم الرئيس تحياته واحترامه للسيدة تميمة. وتمنى لها ولصائب بك الصحة والعافية، ووضع السماعة وقال لي بتأثر بالغ:

- إنه لطيف. إنه رجل عظيم.

* * *

بعد الظهر.. غادر الرئيس الجميل باريس إلى الولايات المتحدة وعدت إلى مكتبي في «المستقبل»، وبقيت فيه حتى السادسة مساء على عادتي كل يوم، ثم غادرته إلى البيت. وفي البيت بادرتني زوجتي قائلة:

ـ أين كنت؟ فقد اتصل صائب بك مرتين وكان قاسياً إلى حدٍّ ما.. فلم يسبق لي أن سمعته حادّاً إلى هذه الدرجة.

وقلت:

ـ كنت في مكتبي كالعادة. وها أنذا هنا. فقالت:

ـ اتصل في المرة الأولى فقلت له إنك في المكتب. فقال إنه طلبك في المكتب فلم يجدك. ثم اتصل مرة ثانية وطلب أن تتصل به فوراً.

واتصلت بجنيف، وكان الوقت في حدود السابعة أو أكثر بقليل، في المساء. ورد صائب بك:

وقلت:

ـ مساء الخير صائب بك. يبدو أنك اتصلت بي مرتين. لكنني كنت في المكتب.

وقال بشيء من النرفزة، بل بشيء من الغضب:

ـ ماذا فعلتم بي؟ أنت وصاحبك. لقد أذيع الخبر في إذاعة وتلفزيون بيروت هذا المساء.. وأضافوا إليه أنني عرضت عليه تشكيل حكومة. فهل هذا ما اتفقنا عليه؟

ودب الذعر في نفسي وقلت:

ـ هدِّئ من روعك يا صائب بك. لقد أقلقتني، فما الذي حدث؟ فقال:

ـ لقد أخبرتك بالذي حدث. فهل أنت أذعت أخبار المكالمة التلفونية مع صاحبك.

فقلت:

ـ أعوذ بالله.

فقال:

ـ وأنا لم أذعه طبعاً. يبقى أن صاحبك هو الذي أذاعه.

وقلت مذهولاً:

ـ أين وكيف ومن؟

وقال الرئيس سلام غاضباً:

ـ الحق مش عليك.. الحق عليّ أنا.

وأقفل السماعة في وجهي. وكانت تلك المرة الأولى في علاقتي الطويلة بالرئيس سلام، أسمع منه هذا الصوت العالي.. وهذا الموقف الغاضب مني.

وحرت في أمري. فأنا لم أستوعب حتى اللحظة ما حدث. ولم أدرك تماماً سبب غضب صائب بك عليّ ومنّي. وقلت في نفسي:

ـ لعله غضب من نشر الخبر. لكن من نشره وأين؟ فالرئيس الآن ـ وفي هذه الساعة ـ ما زال في الطائرة، فهل في الطائرة جهاز «تيكر» يرسلون فيه الأخبار الصحفية؟ المكالمة التلفونية حصلت قبل الظهر، وطائرة الرئيس أقلعت بعد الظهر.. وهي لم تصل بعد إلى نيويورك فما الذي جعل الخبر يذاع في بيروت.. وعلى التلفزيون والإذاعة؟

وقال صوت في داخلي:

ـ لم يبق سوى الشخص الثالث الذي كان معنا في الشقة. انه (فلان) أحد مسؤولي السفارة اللبنانية في باريس.

وقالت نفسي:

ـ لا تلصق التهم بالناس عشوائياً. تأكد من الأمر أولاً.. ثم اعلن الحرب على الآخرين.

واتصلت بصائب بك، فلم يرد. بل ردت السيدة تميمة. فسألتها ما الخبر؟

فقالت:

ـ لا أدري ماذا حصل، لكننا تلقينا تلفوناً من بيروت، من البيت، قالوا لنا فيه إن التلفزيون اللبناني أذاع خبراً يقول إن لقاء تمّ بين الرئيسين وأن صائب وافق على مساعدة الرئيس في تشكيل حكومة جديدة. وصائب غاضب جداً وأظن أنه لن يعود إلى هدوئه الآن.

وشعرت بالذنب، والقهر معاً. ووبخت نفسي على ما فعلت. وتساءلت: إذا كانت العنجهية هي التي تدفعني لمثل هذه المهمات، أو هي ربما التباهي وشوفة الحال. وقلت في نفسي:

ـ في مكتبك، وتعمل من الصباح إلى المساء حتى يكاد رغيفك يكون مغمساً بالدم. فلماذا كل هذه الفصاحة؟ ولماذا تلبس لباساً ليس من قياسك؟

وأخيراً.. قررت أن أبرئ نفسي مما حدث، وأعرف بالضبط ما الذي جرى. فتلفنت للدكتور إيلي سالم وكنت أسمح لنفسي بأن أحدثه بشيء من رفع الكلفة، وكان هو الذي أوحى لي بذلك لأنه رقيق وعالي الثقافة والتواضع.

وقلت له:

ـ أين صاحبنا. هل عندك تلفونه؟

فقال:

ـ ماذا جرى؟

فقلت:

ـ هل سمعت الراديو والتلفزيون عندكم؟

فقال:

ـ لا.. ما القصة؟

فقلت له وأنا أخشى أن يكون تلفونه مراقباً:

ـ صاحبك قلب طنجرة المجدرة.

وقال:

ـ ما هذا الهراء؟ أي صاحب، وأي طنجرة؟

فقلت له:

ـ طنجرة المجدرة التي أعددناها وطبخناها بدموع أعيننا.

وقال:

لم أفهم شيئاً. لكن خذ رقم تلفونه.

فأخذت الرقم، واتصلت، فرد علي المرافق الصديق فادي ماضي، وهو الآخر قطعة من السكّر، كثير المودّة، شديد التواضع وسألته:

ـ مرحباً. أين الرئيس؟ أريد أن أكلمه لأمر عاجل جداً.

فقال فادي:

ـ إنه في اجتماع، سأخبره أنك اتصلت لأمر عاجل.

وانتظرت على جمر. فلم آكل، ولم أشرب وأنا منذ عشاء أمس لم آكل شيئاً. وكان رأسي يلف ويدور كأنه جاروشة قمح أو عدس.

وأخيراً.. اتصل الرئيس. فهدأت من أعصابي قدر الإمكان وقلت له:

ـ يبدو أن صديقنا غاضب بسبب إذاعة خبر مكالمتنا في بيروت. وهو كان يظن أننا سنبقيها سرية، بناء على اتفاقنا، إلى أن يحين لكل الأطراف موعد إعلانها، فهل تعلم أن الخبر أذيع من بيروت؟

وقال الرئيس:

ـ نعم أعلم.. وعلى كل حال.. سوف نتحدث في هذا الأمر غداً في باريس فأنا مسافر هذا المساء. وسأتصل بك حالما أصل.

وسُقِط في يدي مرة ثانية. وقضيت الليل وأنا على أقصى درجات الألم النفسي وعذاب الضمير.

وفي الغد وصل الرئيس الجميل إلى باريس عائداً من أميركا.. فالتقيته وسألته عما حصل ومن سرّب الخبر.

فقال:

ـ وهل عيب أن يُعلن أنني تلفنت للرئيس صائب سلام وتلفن لي؟ وهل ارتكبنا جريمة؟ هو؟ أو أنا؟

وقلت:

ـ لا يا ريّس.. لا سمح الله. لكن ليس خبر المكالمة هو الذي أثار الزوبعة، بل تتمة الخبر.

وقال:

ـ وما هي تتمة الخبر؟

فقلت:

ـ لقد أذيع أن الرئيس سلام وافق على المشاركة في الحكم والحكومة.

وقال الرئيس بحسم:

ـ أنا شخصياً مسؤول عن إعلان المكالمة لأنني رأيت في ذلك فرحاً للبنانيين. وقبل أن أغادر باريس إلى أميركا طلبت من رئيس الوكالة الوطنية للأنباء، رفيق شلالا، أن يذيع النبأ وهذا ما حصل.. أما ما أضيف إلى ذلك فليس لي فيه شأن ولا علاقة.

اتصلت بالرئيس سلام، واعتذرت له مرة عاشرة. وأبلغته

أن الرئيس هو الذي أمَر بنشر خبر المكالمة الهاتفية، لكنه لم يعرف من وكيف وماذا أضيف إليه في بيروت.

وقال الرئيس سلام:

– أنا من جهتي، سوف أنفي القصة جملة وتفصيلاً.

وحاولت قليلاً وكثيراً، أن أثنيه عن قراره، فلم أفلح.

وفي ١٩٨٧/٩/٢٨ نشرت مجلة «الأفكار» لصاحبها زميلي في الحوادث وليد عوض الخبر الآتي بعنوان: سلام لا يلتقي الجميل في سويسرا...

«بوساطة تليفونية من الزميل شكري نصر الله مدير تحرير مجلة «المستقبل» في باريس، تم حديث تليفوني بين الرئيس صائب سلام الذي جرت معه الوساطة، وبين الرئيس أمين الجميل من العاصمة الفرنسية حين مر بها في الشهر الماضي. وكان حديث مجاملات لا غير. طلب سلام أبعاده عن وسائل الإعلام.

وفي الغداة فوجئ الرئيس سلام بأن خبر الاتصال الهاتفي قد تسرب إلى وكالات الأنباء، فامتعض ولم ينبس ببنت شفة. ثم إن الرئيس الجميل وهو يصل إلى جنيف طلب أن يلتقي الرئيس سلام وجهاً لوجه، عن طريق تليفون الزميل نصر الله نفسه، ولكن الجواب السلامي جاء حاسماً: غير مستعد لذلك!

ويروي الرئيس سلام أن الرئيس الجميل سأله في العام

١٩٨٣ أن يعطيه لائحة بأسماء من يريد تعيينهم في الدولة، فقال له سلام: «ليس عندي أسماء فكل شباب المسلمين أولادي». ورد الرئيس الجميل عندئذ:

– هيئتك مش لبناني مظبوط يا دولة الرئيس. لأن اللبناني المظبوط يهتم بسياسة المختار والناطور!

ورد سلام:

– هالسياسة تاركها.. لغيري!!»

وفي الأسبوع نفسه، نشرت «الصياد» خبراً في زاويتها «صيد الأسبوع» قالت فيه: «لجأ الرئيس أمين الجميل إلى أحد الصحافيين اللبنانيين في باريس، ليجري بواسطته اتصالاً تلفونياً مع الرئيس صائب سلام في جنيف. المكالمة لم تتطرق إلى الأمور السياسية.. وبقيت في إطار المجاملات العادية».

* * *

وأما ما نشر في «الأفكار» فلم يكن دقيقاً. وما نشر في الصياد قارب الحقيقة، لكن أحداً من هنا وهناك لم يكن يعرف ما الذي حدث بالضبط سوى الله تعالى، وفخامته، ودولته.. والحمد لله تعالى الداعي لكم بطول العمر والسلامة.

وفي مقدور القارئ الكريم أن يعتبرني، بناء على كل ما سبق، حشّوراً صغيراً، يحشر أنفه في الذي ينفع والذي لا ينفع.

الفصل الثاني

خناقة مع الرئيس
الياس سركيس
بسبب صائب بك

في الثامن من أيار/مايو ١٩٧٦ انتخب الأستاذ (وهذا كان لقبه) الياس سركيس رئيساً للجمهورية اللبنانية، وكان ذلك اليوم أشبه بأيام جهنم، لكنه أيضاً شهد معركة عسكرية حقيقية بين القوى الفلسطينية المؤيّدة لسوريا، (الصاعقة وجيش التحرير الفلسطيني)، والقوى والأحزاب التقدمية اللبنانية والفلسطينية التي كانت تتألف من منظمات فلسطينية يسارية وشيوعية، وكتل ميليشياوية لبنانية تابعة لـ «فتح» والجبهات الفلسطينية الأخرى. وكان لبنان قد انقسم إلى ثلاثة لبنانات في مطلع ذلك الصيف اللّهاب:

- لبنان اللبنانيين، أسرى الحرب والصراع المسلّح، الذين لا صوت لهم ولا ثمةَ من يسمعهم؛

- ولبنان الفلسطيني الذي كان مُسلّحاً حتى أسنانه، ومعه عشرات الآلاف من الشباب اللبنانيين الضائعين بين الماضي والمستقبل؛

● ولبنان السوري الذي كان يتمتع بقوة عسكرية متفوقة، ومدعوماً ببعض الميليشيات المسيحية ـ المارونية.

في صباح هذا اليوم، الثامن من أيار/مايو ١٩٧٦، وقبل أربعة أشهر من نهاية ولاية عهد الرئيس سليمان فرنجية (٢٣ سبتمبر ١٩٧٦)، كانت بيروت تشهد أعنف جولات القصف العشوائي، التي كانت القوى اللبنانية والفلسطينية المناصرة لياسر عرفات، تحاول من خلالها تعطيل جلسة الانتخاب والحيلولة دون اكتمال وصول النواب إلى المجلس النيابي الموقت الذي أقيم في ڤيلّا منصور على خط التماس بين البيروتين المقسمتين. غير أن جيش التحرير الفلسطيني المؤيد والمسلّح من سوريا، ومنظمة الصاعقة الفلسطينية ـ السورية أيضاً، وبعض رجال الشرطة اللبنانيين، تمكنوا من توفير الحد الأدنى من الأمن، فانعقدت جلسة النواب، وفاز سركيس في التصويت الثاني بستة وستين صوتاً من أصل تسعة وتسعين نائباً يتشكل منهم المجلس النيابي. لكن الذين حضروا جلسة الانتخاب كانوا ٦٩ نائباً فقط، أي ثلثي المجلس زائداً ستة أصوات.. وكان هذا العدد كافياً لتأمين شرعية الانتخاب.

كان الرئيس المنتخب يقيم في فندق كارلتون البيروتي الشهير المطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط الساحر. وكانت غرفته تطل على مياه الروشة والرملة البيضاء حيث كانت الشمس تسقط في مياهها كل غروب تحت نظر الرئيس سركيس ودهشته.

وما إن وصل موكب الرئيس المنتخب إلى الفندق حتى انهمر الرصاص مرة أخرى من كل جانب، واخترق الرصاص زجاج غرفة الرئيس ومكتبه، وخشي مرافقوه أن يتعرّض للاغتيال وهو بينهم، فدفعوا به إلى الطبقة السفلى ثم إلى ما تحتها فنجا من الموت بأعجوبة.

وفي ذلك النهار الحزين الطويل، كنتُ في مكتبي الجديد الذي استأجرناه من فندق بريستول، حيث كنا نستعد لإصدار مجلتنا الجديدة «المستقبل» التي موّلها المليونير السعودي الفلسطيني الأصل فيصل أبو خضرا، وسلّم إدارتها ورئاسة تحريرها للزميل نبيل خوري الذي كنت شريكه آنذاك في الإدارة والتحرير، وتحت إمرته في الترتيب الإداري.

كان مكتبي جميلاً، ولكنه كان صغيراً لا يتّسع «لكثرة حركتي»، ولذلك كان نبيل خوري يراني كيفما نظر. ولأننا كنا ثلاثة فقط، فقد وجدت متسعاً لي كي أتحرك وأقفز بكل ما كنت أملك في تلك الأيام من حيوية وشباب.

وفي مساء ذلك اليوم، سمعت عبر الراديو خطاب الرئيس سركيس التقليدي إلى اللبنانيين. ولفتني فيه عدد قليل من العبارات والسطور التي اعتبرتها صادقة نابعة من قلب يحب لبنان ويحب اللبنانيين من دون غرض أو زهو.

قال الرئيس المنتخب:

«في هذه اللحظة، أدرك أن المواطن اللبناني يطمح إلى الخلاص فوراً من الواقع المرير الذي يعيشه.. إنني مواطن

من صفوف هذا الشعب. وشعوري الآن هو مزيج من الحزن والألم على ما أصاب لبنان بأرواح بنيه وممتلكاتهم وبمركزه المعنوي الذي يشغله في العالم..».

كنت أسمع وأشهق بالبكاء. فقد كان صوت الرئيس يمثل، بصورة لافتة، حقيقة ما يشعر به هو وما نشعر به نحن، وما يتألم منه الوطن.

ثم قال: «لقد قررت، في جميع مراحل حياتي الخاصة والعامة، أن أكون للجميع. وبالتأكيد فإن مسؤوليتي في هذه المرحلة هي أن أكون في خدمة الجميع، لا أُفرق ولا أميّز،ولا أتحيز إلا للحق والقانون والواجب الوطني... وإذا كان لي نداء أوجهه في هذه المناسبة، إلى إخواني اللبنانيين، فهو نداء لوقف النزيف الدامي فوراً، وإلى البدء بالعمل يداً واحدة وقلباً واحداً لإعادة بناء لبنان».

وأُعجبت أيّما إعجاب ببساطة هذه الكلمات وعمقها. فقد لخص الرئيس المنتخب مشكلة اللبنانيين ودخل في عمقها. فهو عندما يطمح إلى الخلاص من الواقع المرير، فمعنى ذلك أنه يؤكد أن هذا الواقع المرير مفروض من الخارج. وقد امتنع عن تسمية الأشياء بأسمائها لأنه لم يكن قادراً في تلك اللحظة على ذلك.

وعندما ينادي اللبنانيين للبدء بالعمل يداً واحدة وقلباً واحداً، فمعنى ذلك أنه يريد وحدة لبنان، ولا يؤيد تمزيقه إلى دويلات.

وعندما قال: إنه لن يتحيَّز إلا للحق والقانون والواجب الوطني، فهو يعني أنه يدين خروج بعض اللبنانيين على القانون، وسوف يعمل لإحقاق الحق وسيادة القانون والواجب الوطني.

وباختصار، لقد كان الرئيس الجديد يلامس، بشكل مطلق، رغبتي ورغبة جميع الذين أكلوا من عذاب الحرب ولم يجنوا من نيرانها سوى الدمار والابتعاد عن مركز لبنان الدولي.

وخطر لي خاطر سريع، وقلت في نفسي:

ـ إذا كان الرئيس المنتخب يعتقد بأن قيام لبنان من محنته يكون ممكناً إذا استطاع أن يعيد وحدة اللبنانيين، فلا شك أن الرئيس صائب سلام هو الشخص الذي يجب أن يكون إلى جانب الرئيس سركيس.

وقلت في نفسي أيضاً:

ـ هذه محاولة تستحق أن تخوض غمارها يا شكري. فإذا جمعت الرئيس المنتخب بالرئيس صائب سلام، تكون قد قمت بعمل حسن. فعسى أن تكون نهاية العذاب على يدي هذين القائدين.

لكنني لم أكن أعرف الرئيس سركيس، ولا تربطني به أي علاقة. وأما الرئيس صائب سلام، فكانت معرفتي به (آنذاك) لا تسمح لي أن أزعم بأنه قادر على الثقة بي وبمقترحاتي،

خصوصاً وأن الذي بين صائب بك كفريق لبناني وكزعيم سني كبير، وبين الرئيس المنتخب كفريق آخر ينتمي إلى المدرسة الشهابية عدوّ الرئيس سلام.. لا تسمح لي بخوض غمار هذه التجربة القاسية.

ورغم ذلك قلت في نفسي:

- جرّب. فإذا لم تربح البلاد شيئاً، فإنها لن تخسر شيئاً. وتكون أنت قد فعلت أمراً حسناً ترضي به غرورك وشهوتك، ورغبتك بالسلام اللبناني.

كان السؤال الأول الذي يجب أن أبحث له عن جواب هو:

- كيف الوصول إلى الرئيس سركيس؟

ثم حضرني سؤال آخر:

- إذا وصلت إلى الرئيس، فكيف تستطيع، في زيارة واحدة للتعارف، أن تشرح له مقاصدك، وتقنعه بالجلوس إلى طاولة مع ألدّ خصومه وخصوم فريقه الشهابي الذي عاد إلى الحكم وفي نيته الثأر من صائب بك شخصياً؟

وأخذت التلفون، واتصلت بجامعة الكسليك، وطلبت أن أتحدث مع الصديق الأب الراهب الفنان يوسف مونّس (أبو الزوز كما كنت أسميه لمتانة صداقتي له). وقلت له:

- إذا لم يكن عندك شيء بعد هذا الظهر، فأنا قادم إليك لأمر هام جداً.

وكان الأب مُونّس معتاداً مني على مثل هذا الكلام. لأنني فعلاً كنت أحمل إلى الكسليك والأباتي الصديق شربل قسيس كلاماً وأموراً هامة كلما زرتهم، وتغدّيت إلى طاولة قدس الآباتي كما يسمى رسمياً.

كان يسود بيروت في تلك الأيام، الرصاص، والقنابل، والذبح والخطف والقتل. وفي ذلك النهار بالذات، كان الوضع الأمني في غاية الخطورة. فقد انتخب بالأمس رئيس جديد للجمهورية لا يرضي أعداء الجمهورية. لكنني كنت معتاداً على السير بين الرصاص، شأني في ذلك شأن جميع اللبنانيين المرغمين على السعي والعيش. وكان لي أصدقاء في الجانبين بسبب علاقات كنت عقدتها معهما في مهمات معيّنة سآتي على بعضها في مكان آخر من هذا الكتاب.

ذهبتُ إلى الكسليك، ودخلت على الأب مونّس وأمضيت معه ساعةً من الحوار والأسئلة والإجابات حول الرئيس الجديد وأيامه المقبلة. وكان الأب مونّس ابن قرية الرئيس سركيس، وتربطه به صداقة وعلاقة عائلية. ولأن الأب مُونّس راهب، فقد كان يحظى بمزيد من الاحترام والصداقة لدى الرئيس سركيس الذي كان طوال عمره، يحاول أن يضع خطاً أحمر بين شخصه كقريب أو صديق، وبين مناصبه الرسمية الرّفيعة، وكانت كثيرة وهامة جداً، قبل الرئاسة أيضاً. وكان الأب مونس بعيداً عن هذا النوع من الأقرباء الذين يملأون صاحب المنصب بهموم الطلبات والوساطات... إلى آخره. فالرجل راهب وأستاذ جامعي وليس بحاجة إلى وظيفة أو ترقية.

وأخيراً قلت له:

ـ اسمع يا أبو الزوز، أريد أن أجتمع بالرئيس سركيس. وأريدك أن تكون معي، وأن تزوره قبلي لكي تعرِّفه من أنا. وأريد أن أجمعه بالرئيس صائب سلام في جلسة سرية للغاية أترك لهما فقط أن يفصحا عنها أو يكتماها.

وقال الأب مونس:

ـ هذه رغبة طيبة.. لكنها محفوفة بالمخاطر والمزالق. فطبقاً لمعرفتي بالوضع اللبناني، ليس هناك ما يجمع الرئيس سركيس بالرئيس صائب سلام. إنهما خصمان لدودان على صعيد العمل السياسي.

وقاطعت الأب:

ـ أعرف ذلك. أعرف ذلك. لكنني لا أريد أن أجمعهما على الصعيد السياسي، بل على الصعيد الإنساني. رئيس حكومة سابق يريد أن يهنئ رئيس جمهورية منتخباً، خصوصاً وأنه لم ينزل إلى البرلمان ولم يصوت له.

وقال الأب مونس:

ـ هذا هراء. أو لعله حلم لا أرى أنه ممكن أن يتحقق.

وقلت:

ـ فلنحاول يا أبونا. ولكي نحاول.. يجب أن تجمعني بالرئيس سركيس ولمدة طويلة كي استطيع أن أكسر الجليد الذي بينه وبين الرئيس صائب سلام.

وقال الأب مونس:

ـ أمهلني يومين أو ثلاثة أيام كي أرى ماذا باستطاعتي أن أفعل.

... وتركته وعدت إلى بيروت الغربية، ومن مكتبي اتصلت بالرئيس صائب سلام، وطلبت منه موعداً «عاجلاً إذا أمكن»، لأمر على شيء من الأهمية. فرحّب بي صائب بك وذهبت إليه. وأخيراً قلت له:

ـ سأطرح عليك، يا دولة الرئيس، سؤالاً في منتهى الأهمية، وأرجو أن تجيبني عنه بصراحتك المعهودة، لكنني أرجو أن أبلغك بأنني لست هنا بصفتي صحفياً، وبالتالي، فإن الذي سأحدثك فيه، والذي سأسمعه منك، ليس للنشر إطلاقاً.

وقال صائب بك بعفوية وطلاقة.

ـ هات ما عندك. خيراً إن شاء الله.

فقلت:

ـ خير، ولا شيء غير الخير إن شاء الله. أود أن أعرف منك شخصياً، هل عند مانع للقاء الرئيس المنتخب الياس سركيس؟

فقال صائب بك:

ـ بل أنا سأسألك: هل أنت مكلف بهذا السؤال أم ماذا؟

وقلت:

ـ لا والله. إنني أطرحه عليك فقط لأنني أعرف أن لقاءك بالرئيس سركيس قد ينقذ البلاد ويضعها على المسار السلمي.

وقال الرئيس سلام:

ـ سوف أصدقك، ولكنني لا أرى دوافعك إلى هذا العمل.

وقلت:

ـ شكراً لأنك صدقتني. وأرجو أن أكون عند حسن ظنك. وأما دافعي، فهو إيماني بأنكما قادران على فرض هيبة الدولة، وإرساء قواعد السلام لأن الناس لم تعد قادرة على الصبر، ولا على العذاب.

وقال الرئيس سلام:

ـ وهل تعلم الذي بيني وبينهم (يقصد الشهابيين الذي ينتمي إليهم الرئيس سركيس).

وقلت بسرعة ملفتة:

بالتأكيد يا دولة الرئيس أعرف.

وقال:

ـ وتعرف من جاء به رئيساً وكيف؟

وقلت بسرعة أيضاً:

أعرف يا صائب بك.

وقال:

ـ وهل تظن أنهم سيسمحون له بمقابلتي؟

وقلت:

نعم أظن. فإذا كان الرئيس سركيس غير قادر على التصرف بحرية، فمعنى ذلك أن أحداً في العالم لا يستطيع أن يكون حرّاً.

ـ وهل تعرفه إلى هذه الدرجة كي تقول إنه حرّ ولا يتنازل عن حريته؟

... وأُصبت بقشعريرة سَرَتْ في جسدي كدبيب النمل: فإذا قلت إنني أعرفه سأكون كاذباً. وإذا قلت إنني لا أعرفه أكون قد أتحت الفرصة للرئيس سلام كي يطردني من مكتبه طرداً. وإذا كذبت وقلت انني أعرفه، فلا بدّ أن أكون مدركاً أن الرئيس سركيس هو ملك من ملوك الحرية والكرامة الشخصية.

والحقيقة أنني كنت أعرف هذه الصفة في الرئيس سركيس من دون أن أعرفه عن قرب. وقد روي عنه ما يشبه الأساطير في الاعتزاز بالنفس والكرامة والشجاعة الأدبية. ونحن نعلم أن الخليفة أبا بكر الصديق كان رجلاً كريماً رفيع الخلق والأخلاق من دون أن نعرفه شخصياً. وإلاّ فلا معنى للحياة إذا كان رائدَها التمثيلُ والادعاء.

وقلت للرئيس سلام:

ـ ان معرفتي بالرئيس سركيس لا تقاس بمعرفتك به

ومعرفتك عنه. وليست أتصور أن دولتك لا تعرف أن الرئيس سركيس رجلٌ مثالي بكل معنى الكلمة. والمثاليون هم حتماً من كبار النفوس والاعتزاز بالذات والكرامة والشجاعة.

وقال الرئيس سلام:

ـ صحيح. هذا صحيح جداً. وأنا لا أنكر على الرئيس المنتخب هذه الصفات النبيلة، لكنني أتحدث عن إمكانياته بالسياسية المتاحة له وهو أسير اللعبة الكبرى التي تعصف بلبنان والشرق الأوسط كله.

وقلت لصائب بك:

ـ عال.. هكذا نكون متفقين على أن الرئيس سركيس عاقل ومحنّك وذو أخلاق عالية. ولأنه كذلك، فلا بدّ أن يكون اللقاء معه واضحاً ويجلو أموراً كثيرة. وفي تقديري، أنه سيصارحك إذا كان قادراً، وسيصارحك إذا كان عاجزاً عن القيام بالمهمة التي نحن في صدد القيام بها.

وقال الرئيس سلام متساهلاً، ويبدو أنه اقتنع بوجهة نظري:

ـ لكن، ينبغي أن تعلم، قبل أن تقوم بهذه المهمة، أنني لن أذهب إليه كي لا اكون متناقضاً مع موقفي السياسي والنيابي منه، ومن المؤكد أنه لن يأتي إليّ، وهذا حقه. ولذلك لا بدّ أن تبحث معه عن مكان ثالث نستطيع كلانا أن نلتقي فيه.

وانفرجت أساريري. ونهضت من مقعدي، وصافحت الرئيس صائب سلام، شاكراً مغتبطاً. وما لبثت أن ودَّعته وانصرفت.

ومن مكتبي في شارع الكومودور اتصلت بالأب يوسف مونس، فسلمت عليه وقلت له: كل شيء على ما يرام، فقال لي إنه هو أيضاً على ما يرام، وكل شيء عنده يجري على ما يرام. وكان هذا النوع من الحديث التلفوني سائداً في بيروت في تلك الأيام الجهنمية، لأن أحداً لم يكن يعلم من من الأطراف يراقبه ويستمع إلى محادثاته الهاتفية. وكان شبه مستحيل أن يسمع المرء كلاماً حقيقياً سَواءٌ في الجلسات العامة، أو في التلفون. ولذلك كانت الأشياء جميعاً متشابهة تكاد أن تكون نسخة واحدة في كل بيت ومكتب وصالون، ومجلس سياسي. وأما حقائق الناس والنفوس فكانت محصورة في داخلهم فلا تخرج إلاّ حيث تكون الثقة متبادلة مئة بالمئة. وحتى في هذه الثقة المتبادلة، كان يحصل أن يسقط الصديق في حبائل صديقه، إذ لم يكن الأصدقاء جميعاً مخلصين ولا الخلان أوفياء في المطلق.

ذهبت إلى الكسليك، فأبلغني الأب مونس أنه زار الرئيس سركيس وطلب لي موعداً معه. وقلت للأب مونس:

ـ طبعاً. لنا كلينا.

فقال:

ـ نعم، لنا معاً. وقد رحب الرئيس سركيس بهذه الزيارة،

فهو رجل عظيم لا يحمل في نفسه عُقَداً كالتي يعرفها الصحافيون عن بعض السياسيين المتكبرين المتجبرين. وغداً سترى كيف أنه رجل بسيط، غير متكلف، بعيد عن الكبرياء، لا يدَّعي ما ليس عنده.

في اليوم المحدّد، وقبل ثلاث ساعات من الموعد، اتصلنا، أنا والأب مونس، بالملازم الأول قرقماز، مرافق الرئيس وسكرتير مكتبه، وسألته إذا كان الموعد ما زال قائماً في حينه، فأكد قرقماز الموعد، وأعدنا ترتيب أوراقنا، وحضَّرت نفسي ورأسي وأوراقي للجلسة المنتظرة.

في بيت شقيق الرئيس سركيس، في الحازمية، كان الرئيس المنتخب يعيش، ويقيم بانتظار نهاية ولاية الرئيس سليمان فرنجية كي ينتقل إلى قصر الرئاسة في بعبدا. وكان فندق كارلتون مكتب الرئيس الموقت قبل أن يتسلم الرئاسة. وكان يقسم مواعيده مع الناس إلى قسمين:

قسم في الكارلتون وهو القسم الذي يغلب عليه الطابع الرسمي.

وقسم في بيت أخيه للذين تربطه بهم علاقات ود وصداقة وقربى. وبما أنني كنت مجهولاً تماماً لديه، فقد كان الموعد في الحقيقة للأب مونس الذي تربطه بالرئيس علاقة ودّ وقربى.

استقبلنا الملازم الأول قرقماز استقبالاً حسناً، وانحنى للأب مونس على عادة أبناء الرعية عندما يصافحون رجال

الدين. وصافحني وقادنا إلى صالون صغير كان الرئيس سركيس يجلس فيه وحده.

سلمنا عليه، وبدا لي أنه قريب من الأب مونس إلى درجة تسمح للأب مونس بالتصرف كأنه في بيت أخيه، أو ابن عمه، فارتفعت الكلفة فوراً وقال الأب للرئيس:

– هذا هو صديقنا أبو الشكر، الصحافي الذي حدثتك عنه. وهو كان يعمل سكرتيراً للتحرير في مجلة «الحوادث»، لكنه الآن يستعد لإصدار مجلة جديدة اسمها «المستقبل».

وقال الرئيس:

– عال.. ما شاء الله. «المستقبل» ما غيرها؟

فقلت:

– نعم، يا فخامة الرئيس، «المستقبل» الجريدة التي كان يملكها معالي الوزير هنري إده، لكن اسمح لي يا فخامة الرئيس أن أصحح بعض ما قاله الأب مونس.

فأنا أولاً لست بصدد إصدار «المستقبل»، بل أنا موظف فيها برتبة مدير تحرير.

وثانياً: «المستقبل» لن نصدرها يومية، بل أسبوعية. ستكون مجلة أسبوعية نتطلّع إلى أن تصبح «نيوز ويك» العرب إن شاء الله.

قال الرئيس:

– ومن سيصدرها إذن؟

قلت:

ـ لنا صديق سعودي من أصل فلسطيني، اسمه فيصل أبو خضرا، وهو متموّل كبير يعشق الصحافة. وقد اشترى امتياز «المستقبل» مع السيد جوزف عبدو الخوري المصرفيّ المعروف، وسيكون رئيس تحريرها ومديرها العام الزميل نبيل خوري، وأنا سأكون سكرتير التحرير إن شاء الله.

قال الرئيس:

ـ آه. أعرفها. أعرف جوزف، وأعرف نبيل.. وهذه بشرى طيبة فعسى أن يوفقكما الله.

كان الرئيس يتحدث معي وكأنه أحد أبناء عمي. وبدا لي بشوشاً صادقاً طبيعياً إلى درجة أنني توقفت فجأة عن الارتجاف الذي فرضته طبيعة الموقف، وأشعرني أنني قادر أن أقول ما أشاء، وباللغة التي أشاء، ومن دون كلفة أو تمثيل.

وكان هذا بالذات ما أنتظره. وبعد حديث سريع في الشؤون العامة التي كانت تقاسي منها تلك الأيام السوداء: من قتل، وكمائن، ومذابح وتهجير. تمنيت للرئيس المنتخب عهداً سالماً من الأذى.. وأخيراً قال الرئيس بلهجة في غاية الود والوداعة والمحبة:

ـ هاه. قل لي يا أستاذ أبو الشكر.

وقاطعته قائلاً:

ـ عفوك يا فخامة الرئيس. فقد فاتني أن أصحح تعبير

الأب الصديق مونس. فـ: أبو الشكر هو اسمي الحركي. واسمي الحقيقي هو شكري. وفي الكسليك يعرفونني بـ: «أبو الغضب».

وقال الرئيس:

ـ ما هذا؟ من «أبو الشكر» إلى «أبو الغضب»؟ ما الداعي لكل هذه الألقاب؟

فقلت له:

ـ إنها الموضة يا فخامة الرئيس. وأحياناً يضطر المرء لاستخدام اسم مستعار بسبب الحالة الأمنية الصعبة. والحقيقة أن كلا اللقبين لا يعنيان حقيقتي في شيء. فلا انا أبو الغضب ولا أنا أبو الشكر.

وقال الأب مونس مازحاً:

ـ لا تصدقه يا فخامة الرئيس. إنه قريب من أبو الغضب جداً. فهو كتلة متحركة من الأعصاب المتحفزة، ونحن في الكسليك نسميه أبو الغضب لأنه سريع الغضب والنرفزة. وهو يقف أبداً على حافة الانفجار.

وضحك الرئيس وضحكنا معه، ثم بدا أن الجو أصبح عائلياً فقال الرئيس:

ـ تفضل. أظن أن عندك طلباً معيناً.

فقلت:

ـ لا يا فخامة الرئيس. ليس عندي طلب، بل أنا أحمل

إلى فخامتك اقتراحاً أرى فيه حافزاً مؤكداً لاستعادة وحدة اللبنانيين. واقتراحي هو ان يجري بينكم وبين الرئيس صائب سلام لقاء أخوي تدرسان فيه الوضع اللبناني وتقرران ما ترياته ضرورياً لوقف التدهور الأمني والاقتصادي في البلاد. و . . .

وقاطعني الرئيس قائلاً :

ـ من حيث المبدأ، ليس هناك أي مانع يحول بين دولة الرئيس سلام وبيني، فالرئيس سلام علم من أعلام الوطنية والإخلاص في لبنان. ومن حيث الواقع لا أرى ما يحول دون ذلك. لقد استمعت إليك. ومن دون مزيد من الشرح، أرى أن هذا الاقتراح جيد وضروري ومفيد، لكن يجب أن ندرسه بعناية لكي لا يعطي مفعولاً سلبياً إذا نحن لم نشبعه عناية ودراسة.

وانتابني شعوران متناقضان. فهل استوقفني الرئيس عن الكلام لأنه رأى أنني أقوم بمهمة صعبة ظننت أنها سهلة، أم أن الرئيس وجد في الاقتراح مشروعاً وطنياً جيداً اقتنع به من دون مزيد من الشرح لأن الشرح قد يفقده قيمته العفوية المؤكدة؟

وقلت للرئيس :

ـ أرجو المعذرة يا فخامة الرئيس. فالحقيقة أنني فوجئت بموقف فخامتك، فهل تريدني أن أسكت؟ أم أنك موافق على الاقتراح؟

قال الرئيس :

ـ وما الذي يجعلك تشعر بهذا الموقف؟

قلت :

لأنك استوقفتني قبل أن أستكمل حجتي حول الاقتراح.

قال الرئيس :

وهل ثمة ضرورة لمزيد من الشرح كي تقنعني بأهمية اللقاءات الوطنية والمصالحة الأهلية. أنت أعلنت اقتراحك، وأنا فهمت مقصدك. والمزيد من الشرح سيفقد الاقتراح عفويته وهيبته.

وأضاف :

ـ أنا موافق على لقاء الرئيس سلام، لكن دعني أدرس الموضوع قليلاً، وسوف أعطيك موقفي النهائي في غضون الثماني والأربعين ساعةً المقبلة. والآن دعونا نتحدث بأمور أخرى.

ونظر إلى الأب مونس وقال له :

ـ أخبرني يا أبونا، كيف العائلة، وكيف عملكم في الجامعة (جامعة الكسليك) هل تستطيعون التعليم كما يجب؟ وهل يستطيع تلاميذكم الحضور إلى الجامعة؟

. . . وتشعب الحديث، خارج المهمة التي جئت من أجلها . . وشربنا القهوة، وودعنا فخامته بعد ساعة وإحدى عشرة دقيقة.

وركبنا السيارة ـ سيارتي وجلس الأب مونس إلى جانبي، واتجهت به نحو جامعة الروح القدس ـ الكسليك. وحالما خرجنا من محيط منزل الرئيس الموقت قلت للأب مونس:

ـ يبدو أن صاحبك خيّبني.

فقاطعني الأب مونس قائلاً:

لا. . . تقل ذلك. فأنا فهمت الموضوع بالعكس تماماً. ولأنك لا تعرف الياس سركيس خُيِّل لك ذلك. إن هذا الرجل لا يحب الكلام كثيراً، وبالتالي. . فهو أيضاً لا يحب الشرح كثيراً. ونحن متعودون أن نكرر عباراتنا مرات كثيرة كي نقول جملة واحدة، وهو لا يحب ذلك. لقد فهم مقصدك منذ اللحظة الأولى ووافق، فماذا تريده أن يفعل أكثر من ذلك؟ هل تريده أن يصغي لمحاضرة في الوطنية تلقيها عليه؟. . أم في منافع الوحدة الوطنية؟ إن كل كلمة كان يمكن أن تقولها خارج العبارة الصغيرة التي تضمنت اقتراحك كانت ستبدو مفتعلة وفي غير محلها وغير أوانها. . وهذا الرجل لا يطيق التكرار وسرد العبارات.

وقلت للأب مونس:

ـ هل هذا هو انطباعك فعلاً؟

فقال:

ـ بالتأكيد. . هذا هو انطباعي. وإذا كنت لا تحمل الانطباع نفسه، فذلك بسبب عدم معرفتك بالياس سركيس فقط لا غير.

وعدنا إلى الكسليك، وتركت الأب مونس على أمل أن نتابع الاتصال للعودة إلى الرئيس سركيس بعد يومين. وقبل أن يترجل من السيارة قال الأب مونس:

ـ أظن أنه لم يعد مناسباً أن أبقى إلى جانبك في هذه المهمة. فالرئيس وافق. ومن الآن وصاعداً من الأفضل أن تتابع الاتصال وحدك. رقم تلفونه معك. وهو أصبح يعرفك الآن، ويعرف ما الذي أنت بصدده.

وعدت إلى بيروت الغربية، واتصلت بالرئيس صائب سلام وطلبت أن أقابله، فاستقبلني ودخلنا معاً إلى مكتبه الصغير داخل صالوناته الواسعة. وقلت له:

ها أنذا عائد للتوّ من لدن فخامة الرئيس، وقد كان شهماً وفارساً وأصيلاً. حدثني عنك وعن وطنيتك وقال إنك علم من أعلام الوطنية في لبنان، فكيف تريد أن يجري اللقاء وأين؟

قال الرئيس سلام:

ـ إذا كان هذا هو الموقف فأنا أقترح أن يجري اللقاء في بيروت، في منزل صديق مشترك يوافق عليه هو وأوافق عليه أنا.

وغُصْنا في حديث طويل، ولما اقترب الظلام ودعت الرئيس سلام، وانصرفت إلى مكتبي الذي كان بيتي: لأنه كان جزءاً من شقة سكنية يديرها ويملكها فندق الكومودور في شارع الكومودور.

في اليوم الثالث، قرابة الظهر، اتصلت بالرئيس المنتخب الياس سركيس وسألت الملازم قرقماز أن يدبر لي موعداً عاجلاً مع فخامته فوعدني خيراً، وأخذ مني رقم هاتفي. وبعد دقائق رن جرس هاتفي، وكان الملازم الأول قرقماز على الخط، فقال لي:

هل أنت فلان؟

فقلت نعم.

فقال:

– فخامة الرئيس يريد أن يكلمك؟

وقال الرئيس:

– الله معك.

فقلت:

– الله يحفظكم يا فخامة الرئيس. شكراً لكم ولعاطفتكم.

وقال الرئيس:

– بالنسبة للموضوع، أرى أنه غير مناسب في الوقت الراهن.

فأحسست بقشعريرة في جسدي باردة كالثلج. وقلت:

– لكن يا فخامة الرئيس، عسى أن يكون المانع خيراً.

فقال:

– خيراً إن شاء الله، لكن الوقت الآن لا يسمح بمثل هذا التصرف. لعل المستقبل يكون كفيلاً بمثل هذه العملية.

وسُقِط في يدي. وتملكني خوف ممزوج بشعور بالفشل وبشيء من الحزن والأسى، وتمالكت أعصابي وقلت بنبرة عالية:

– اسمحوا لي يا فخامة الرئيس ما دام الأمر كذلك أن اصارح الطرف الآخر بالأمر لكي لا يظن أنني اخترعت مشروعاً ووقعت ضحيته.

وقال الرئيس:

– لا أرى مبرراً لذلك، فلا هو سيظن، ولا أنا سأظن. الوقت وحده هو الذي يَحُول دون مثل هذا اللقاء.

وحاولت أن أستنجد بالحيلة والمنطق لكن الرئيس أبدى، بكل تهذيب، أسفه وحاول أن يوحي لي بأن أختصر الكلام، ففهمت مقصده وترك السماعة.

وجلست إلى نفسي لعدة دقائق، أستعرض الأمر من كل جوانبه، وأخيراً قلت في نفسي:

– لقد رميت نفسك في هذه التجربة الفاشلة، فما أنت سوى حشرة صغيرة تحاول أن تجعل من ذاتك وسيطاً وابن كار في السياسة اللبنانية. فاخرس، واذهب إلى صائب بك واعتذر له، ولا ترجع إلى مثل هذه العمليات التي لن تفيد منها سوى الخيبة.

وذهبت إلى صائب بك ورويت له ما جرى بأشد العبارات صراحة، واعتذرت إليه عمّا بدر مني من تطاول وحشرية. فقال الرئيس سلام:

ـ لقد قلت لك يا ابني: إن المسألة ليس في يده، ولن يسمحوا له بمثل هذا اللقاء. وما ذنبك سوى أنك لم تسمع مني، فسمعتها منه. فخيرها بغيرها إن شاء الله.

كان ذلك في منتصف شهر حزيران يونيو ١٩٧٦ ومنذ ذلك التاريخ لم التق الرئيس سركيس، ولا سمعت منه، ولا سمع مني كلمة واحدة، حتى الخامس من مايو ١٩٨٢، وكنت عائداً لتوي من دمشق، بعد أن أجريت حديثاً طويلاً مع الرئيس حافظ الأسد لمجلة «المستقبل» التي شهد الرئيس سركيس أول أيام العمل على إصدارها.. لكن عندما تعذر علينا العمل في بيروت بسبب الوضع الأمني، غادر نبيل خوري مديرها العام ورئيس تحريرها إلى باريس. وبعد أن استأجر مكاتب صغيرة كي نبدأ منها، اتصل بي، فتركت لبنان وأصدرناها من هناك في نهاية فبراير ١٩٧٧ من مال الصديق فيصل أبو خضرا.

في الثلاثين من نيسان/إبريل ١٩٨٢ غادرت باريس إلى دمشق، وصباح السبت الثاني من أيار كان موعدنا مع الرئيس حافظ الأسد في القصر الجمهوري لإجراء مقابلة طويلة معه بدأت في العاشرة صباحاً، وانتهت في الخامسة والنصف بعد الظهر. ثم استضافني الأستاذ جبران كوريَّة، الناطق باسم الرئيس السوري، في مكتبه في القصر من الخامسة والنصف حتى الثانية من صباح الأحد. وكان بقائي هناك لأن الرئيس الأسد يحرص على أن يرى ويقرأ الحديث كله قبل نشره.

وانشغلنا جميعاً في تفريغ شرائط الكاسيتات وقراءتها وكتابتها وإعادة كتابتها، ثم كتبت مقدمتها في العاشرة والنصف مساءً وأمامنا صحن من اللوز الأخضر الشامي، وصحن آخر من الجرانك وكانت هاتان الثمرتان في موسمهما الربيعي الشهي.

وفي الثانية والنصف انتهى عملنا، وبدأ الرئيس الأسد يقرأ في مكتبه في حين ذهبتُ بصحبة الأستاذ كوريه والزميل ياسر عبد ربه إلى مطعم أكلنا فيه بعد جوع، وشربنا بعد عطش، ثم عدنا إلى القصر لنستأذن الرئيس ونودعه عائدين إلى باريس في الثامنة صباحاً.

وعندما صافحت الرئيس مودعاً قال لي:

ـ لقد قرأت الحديث، إنه عمل جيد. ولعله أجود حديث يُنشر لي باللغة العربية. ثم التفت إلى الأستاذ جبران وقال له:

ـ دعهم يترجمونه إلى اللغات الأجنبية ووزعوه على سفاراتنا في الخارج.

وقال كورية:

ـ بأمرك يا سيادة الرئيس.

وغادرت دمشق، وفي الطائرة التي أقلتني إلى باريس، رحت أستجمع من ذاكرتي بعض الحوارات التي لم يشأ الرئيس أن ننشرها وأخذت قلماً وورقة وسجلت ملخصها وكانت ما يلي:

أولاً: قال لي الرئيس الأسد ردّاً على سؤال: «إن بشير الجميل قطع علاقته بإسرائيل، وهو شاب وطني جيد».

وكتبت إلى جانب هذه الملاحظة ما يلي:

«كانت سوريا قد قطعت علاقتها بالقوات اللبنانية التي يرأسها الشيخ بشير الجميل بسبب علاقتها بإسرائيل».. لكن الرئيس الأسد لم يعد يحمل على القوات وبشير ما دام قد قطع علاقته بالإسرائيليين. وكان بشير الجميل قد بدأ يوحي في خطاباته بأنه مرشح محتمل لخلافة الياس سركيس.

ثانياً: قال لي الرئيس الأسد ردّاً على سؤال حول رأيه بالتمديد للرئيس سركيس لمدة سنتين، وكانت هذه الفكرة قد طرحت في لبنان ولاقت تأييداً كبيراً، قال الرئيس الأسد:

ـ أليس هناك مجلس نيابي في لبنان؟

فقلت:

ـ نعم يا فخامة الرئيس.

فقال:

ـ أليس النواب أحراراً في اختيار من يرونه أهلاً للرئاسة؟

فقلت:

ـ بلى يا فخامة الرئيس.

وكتبت تحت هذا الكلام الملاحظة الآتية في دفتري الخاص:

«فهمت من كلام الرئيس الاسد أن سوريا لا ترى ضرورة لتمديد ولاية سركيس، أو للتجديد له ما دام أن المجلس النيابي موجود وقادر وحرّ».

وكتبت في دفتري أيضاً عدداً من الردود الخاصة جداً على أسئلة ليست للنشر حول: العميد ريمون اده، والمعارضة اللبنانية، وغير ذلك.

في باريس، وفور وصولي من دمشق، التقيت الزميل في المستقبل آنذاك جورج بشير، وفيما كنا نتناول العشاء في منزلي قلت له متباهياً:

ـ لقد أطلعني الرئيس الأسد على معلومات ليست للنشر. وتابعت قائلاً:

ـ أبلغني أن صاحبك الباش (أي: الشيخ بشير) قطع علاقته بإسرائيل وأنه لبناني صميم وطيب ونظيف.

وقال لي الرئيس الأسد بما معناه أن سوريا لا تؤيد التمديد للرئيس الياس سركيس.

في اليوم التالي غادر جورج بشير باريس إلى بيروت. وبعد أقل من ٢٤ ساعة اتصل بي من بيروت وقال لي:

ـ الباش يريد أن يكلمك.

ولم أكن أعرف الشيخ بشير الجميل.. ولم أره في حياتي على رغم أنني كنت صديقاً لأخيه الشيخ أمين، وأعرف والده الشيخ بيار مثل كل الصحافيين.

وأخذ الباش السماعة وقال لي:

ـ مرحباً، كيف حالك؟

وقلت:

ـ بخير يا شيخ بشير. الحمد الله.

فقال:

ـ ماذا قال لي جورج؟ يبدو أنك أجريت حديثاً طويلاً مع الرئيس الأسد وجئتم على سيرتي؟

قلت:

ـ نعم.. أجريت حديثاً طويلاً مع الرئيس الأسد، وجئنا على سيرتك، لكن ما قاله عنك لن أنشره لأنه ليس للنشر.

وقال الشيخ بشير:

ـ لا بأس، لكن هل هناك ما يمنع أن تقوله لي؟

وقلت:

ـ لا ليس هناك مانع. لقد قال لي.. كذا وكذا وكذا. وأعدت عليه موضوع قطع العلاقة بإسرائيل.

فقال الشيخ بشير:

ـ شكراً لك.. لقد كنت فقط اريد أن أسمع منك هذا الكلام. أشكرك مرة أخرى. هل تريد مني خدمة من هنا من بيروت؟

فقلت له:

ـ نعم أريد خدمة خاصة فهل تعدني بتنفيذها؟

فقال:

إذا كنت قادراً عليها أعدك بتنفيذها دون اي تردد.

فقلت:

ـ أود إذا قررت أن ترشح نفسك للرئاسة أن تنشر قرارك في «المستقبل» قبل أي صحيفة أخرى. فهل هذا ممكن؟

وقال الشيخ بشير:

ـ على راسي، إذا قررت فستكون «المستقبل» أول من ينشر الخبر وقلت له:

ـ سوف اتصل بزميلي في بيروت غسان بيرم.. فالرجاء أن تستقبله لإجراء حديث لنا.

.. وهكذا كان. ونشرنا في المستقبل أول حديث للشيخ بشير يعلن فيه صراحة ترشيحه للرئاسة اللبنانية.

... وبعد وقت قصير رن جرس الهاتف في مكتبي، وكان على الجانب الآخر المير فاروق أبي اللمع مدير الأمن العام اللبناني آنذاك، وأحد أقرب المقربين من الرئيس الياس سركيس.

وقال المير:

ـ هاه.. ماذا أخبرني جورج.. ما القصة؟

فقلت له:

ـ القصة يا مير كما سمعتها من جورج. يبدو لي أن دمشق لا ترى ضرورة للتجديد أو التمديد.

وقال المير:

ـ هل ستبقى في مكتبك إلى حين؟

فقلت له:

ـ إنني لا أغادر مكتبي إلا مساء.

... وبعد ساعتين تقريباً من هذه المخابرة اتصل بي المير فاروق مرة أخرى، وهذه المرة من القصر الجمهوري وقال لي بعد السلام والتحية:

ـ فخامة الرئيس يريد أن يكلمك.

وقال الرئيس سركيس:

ـ مرحبا.. كيفك يا أبو الشكر؟

فدبّ السرور في عظامي، وتذكرت جلستي معه قبل ست سنوات عندما عرفّه عليّ الأب يوسف مونس بقوله: أعرفك بصديقنا أبو الشكر.

وقلت للرئيس سركيس:

ـ أسعد الله نهارك يا فخامة الرئيس. كيف أنت وكيف صحتكم؟ انك تتمتع بذاكرة طيبة فأنت ما زلت تذكرني:

وقال وقلت لبضع ثوان كان فيها سيّداً في دماثة الخلق والمحبة وطيبة القلب. ثم قال:

ـ أخبرني ما الذي قيل لك في دمشق؟

فرددت على فخامته ما سمعته، بل ما سجلته في دفتري حرفياً.

فقال:

ـ وما الذي فهمته أنت شخصياً من هذا الكلام؟

قلت:

ـ يبدو لي يا فخامة الرئيس أن ليس هناك حماس كبير لمسألة التمديد أو التجديد.

فقال الرئيس سركيس حرفياً:

ـ أنت قلت.

وانتهت المكالمة، وامتنع الرئيس سركيس عن سماع أي رأي يشجعه على التمديد أو التجديد.

وفي التاسع من مايو ١٩٨٢ ـ أي في اليوم التالي لاتصاله بي، أصدر الأمير فاروق أبي اللمع تصريحاً جاء فيه أن الرئيس سركيس لن يقبل التمديد ولا التجديد، وقال: «كفى الرجل انه لم يسلّم أي شيء لا من السيادة ولا من الاستقلال، ولم يوقع أي معاهدة ولا مسّ أي شيء يتعلق بالكيان اللبناني، على رغم الضغوط الهائلة التي تمارس عليه»

وقال أيضاً: «ان جميع الأطراف في لبنان، لبنانيين وغير لبنانيين شركاء في التآمر والمناورة على الحكم...».

وسارت اللعبة الديمقراطية سيرها الطبيعي، ونجحت نبوءات الرئيس الأسد، فانتخب بشير الجميل رئيساً، وانتهى الحديث عن التمديد، أو التجديد للرئيس سركيس الذي أنهى ولايته في العام ١٩٨٢، وغادر لبنان إلى باريس مرهقاً، وأقام في شقة صغيرة متواضعة، وسرعان ما داهمه التعب والألم، واشتد عليه المرض إلى أن جعله شبه عاجز عن الكلام. وكانت تنتابه فترات من وجع الرأس لا يطيقها بشر. وبعد ثلاث سنوات من العذاب توفاه الله (سنة ١٩٨٥) في شقته بباريس وهو ابن إحدى وستين سنة فقط، رحمه الله ألف رحمة.

الفصل الثالث

علّمني تدخين السيجار وأنا عاجز عن شرائه

كان نظام عملنا، أنا وصائب بك، في كتابة مذكراته الشيّقة يعتمد على برنامج دقيق كدقة الساعات السويسرية، التي كنت أراها واقرأ أسماءها وأشهق كلما خرجت من الفندق وتجولت في شوارع جنيف ومحلاتها الرائعة، لكنني لم أكن أشهق بسبب جمال هذه الساعات، ولا بسبب غلاء أسعارها، فقد وهبني الله عادةً سيئة هي أنني لا أطيق حمل الساعة في معصمي. وقد أدت هذه العادة السيئة إلى حرماني من كل العروض والهدايا التي كانت تتضمن ساعة يد ذهبية أو حتى فضية. واكتشفت أخيراً أنني أتمتع بعادة سيئة أخرى هي ارتداء القميص وربط الكرافات فوقها. وكثيراً ما كان الأصدقاء أو رفاق السهرة أو الغداء أو الجلسة، يرونني وأنا أرفع إصبعي إلى ما بين عنقي وياقة القميص كي أبعدها عن رقبتي قليلاً قبل أن أختنق. وكانت زوجتي تنهرني كلما خرجنا إلى مناسبة اجتماعية تقتضي لبس القميص والكرافات وتقول لي:

– إياك أن تبدأ بوضع يدك بين قميصك ورقبتك فهذا تصرف معيب.

لكنني لم أكن قادراً على تحقيق رغبة الزوجة العزيزة، فقرَّرَتْ أن تشتري لي قميصاً واسعة تكون ياقتها فضفاضة وبعيدة عن ملامسة عنقي. ونزلتُ عند رغبتها، لكنَّ منظري بالقميص الجديدة، كان يبدو غريباً وشاذّاً. وعلى مرّ السنين والتجارب سلّمت أمري لله، ورضيتُ بعذاب القميص والكرافات والساعة لكنني كنت أفعل ذلك لفترة السهرة أو الغداء أو العشاء فقط، وحالما نركب السيارة عائدين تكون الكرافات الأنيقة قد أصبحت في «جزدان» الزوجة.

وأما السبب في كل هذا الإزعاج، فكان: كثافة الشعر في يديّ وصدري وبطني وظهري وكل جسدي، باستثناء رأسي. وكان منظري في الصيف، يبدو مضحكاً وأنا خارج بالمايوه من مياه البحر المتوسط على الشاطىء الإسباني الذي أحبه حتى الموت. وكانت نساء هولندا والمانيا وفرنسا اللواتي يقضين الصيف إلى جانب خيمتنا، ينظرن إليّ بشيء من الدهشة الممزوجة بشيء من الهمهمة. وأما زوجتي فكانت تفسِّر لي دهشتهن بأنها ناتجة عن الخوف الذي يداهمهن عندما يرين هذا الوحش البشري خارجاً من البحر ورأسه حليق ومضحك. أما أنا، فكنت أفسر هذه الدهشة بأنها إعجاب أوروبي برجولة هذا الفلاح الشرقي العروبي الذي هو أنا. ولكي أقهر زوجتي، كنت أقول لها:

– غيبي نصف ساعة وعودي لكي تتأكدي بنفسك أنهن سيهجمن عليّ ويتخاطفنني طمعاً بفتوّتي وعضلاتي وفحولتي البادية على شعر جسدي.

وكانت زوجتي، حبيبة قلبي، تضحك حتى تدمع عيناها.. ثم لا تلبث أن تمتلئ بالغيرة، فتقول لي:

– قم بنا نغيّر المكان.

* * *

نعود إلى أيام جنيف، ومذكرات صائب بك. وكنت أقول: إن نظام العمل على المذكرات كان صارماً ودقيقاً. ففي التاسعة صباحاً أكون على جرس منزل صائب بك. أقرعه فيعرف كل من في الداخل أن الضيف هو أنا. فأدخل وأصبّح وأشرب القهوة.. ثم ننصرف إلى المكتب، ونبدأ بالعمل الجدي المضني.. المضني جداً، حتى الثانية عشرة ظهراً. فنتوقف قليلاً ثم نذهب إلى الحمام، فنغسل أيدينا وندخل إلى غرفة الطعام، فنتغدى خلال نصف ساعة. وينهض صائب بك فيغسل يديه وأسنانه ويدخل غرفته لاستراحة طويلة في حين أذهب أنا إلى الفندق، فاستريح حتى الثالثة والنصف ثم نستأنف العمل من الرابعة حتى السابعة.

وفي السابعة تكون السيدة تميمة، كما ذكرت سابقاً، قد حضّرت مائدة العشاء. ونجلس ثلاثتنا نتحدث ونتسامر بينما يكون صائب بك قد حضّر سيجاره الفاخر كواحد من كبار

محترفي تدخين السيجار في العالم كله. فهو يدخن السيجار منذ أوائل الأربعينات. وفي وقت من الأوقات، كان يدخن خمسة عشر سيجاراً في اليوم الواحد. وهذا معناه أنه كان يبدأ به منذ الصباح فلا يتركه إلاّ في آخر الليل.

وفي جلسة كتابة المذكرات، التي تبدأ في الرابعة بعد الظهر، كان صائب بك يستعين بالسيجار كي يتذكر حادثة معينة أو تاريخاً معيناً. وقد تأكد لي خلال السنوات الست التي استغرقتها كتابة المذكرات، بمعدل ستين إلى سبعين ساعة عمل في الشهر، أن صائب بك والسيجار توأمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وقد يكون الأمر اشبه بولع الطفل بزجاجة الحليب ذات المصاصة المغرية.. فاذا فرغت من الحليب تسارع أمه إلى وضع المصاصة في فمه كي لا يفتقدها فيبكي.

وفي مطلع التسعينات، أصبح السيجار مضرّاً بصائب بك بلا جدال. وقرر أطباؤه في الولايات المتحدة أن يمنعوه عن تدخينه على رغم أنهم يعرفون أنّ ولعه به سوف يؤدي إلى ضرر نفسي اذا منعوه عنه. وأخيراً وجدت السيدة تميمة الحل المناسب، الذي تضمّن ترضية مناسبة لجميع الأطراف. فاذا كان صائب بك أمام التلفزيون يدلي بحديث أو برأي. فلا مانع من وضع السيجار الضخم في يده وبين شفتيه، لكن يجب أن يتركه حالما تنتهي الحاجة اليه.

وأما في السابعة مساءً فقليل منه إلى أن يبدأ العشاء. وبعد العشاء: قليل القليل.

وأما في الشغل، بعد الظهر، أو قبل الظهر فيجب أن يغيب السيجار عن الطاولة تماماً.

لكن الأمر بالنسبة لي، لم يكن بهذه السهولة. فسيجار بعد الظهر، أو قبل الظهر، وخصوصاً بعد الظهر، كان يبعث في نفسي شيئاً من الدفء والحرارة العاطفية الشديدة ويبعد النعاس عن جفني، وشيئاً فشيئاً صرت أضع وجهي قبالة صائب بك. فاذا نفث دخان السيجار، أبادر إلى استنشاقه فأشعر بشيء من الانتعاش. والحقيقة أن رائحة سيجار صائب بك كانت طيبة إلى درجة يمكن مقارنتها بالعطر، بل هي أحياناً أعذب من العطر لأن فيها ميزة خاصة تدغدغ مشاعر الرجولة والوجاهة. ولم يكن سيجار صائب بك فقط هو الذي يتمتع بتلك الرائحة الفواحة. بل إن السيجار الهافاني الفاخر هو الذي يبعث بها، لكن مهنية صائب بك، كانت تجعل للسيجار رائحة خاصة. ففي حين أن كثيراً من المدخنين يحملون السيجار بيدٍ، والنار باليد الأخرى لكثرة ما ينطفىء بين أيديهم، كان سيجار صائب بك لا ينطفىء إلا اذا أراد هو أن يطفئه، فتبقى رائحته الطيّبة مستمرة.

وكان رأس السيجار عند كثير من المدخنين يأخذ شكلاً مائلاً بحيث تلتهم النار نصفه ويبقى نصفه الآخر نيئاً فيبدو شكله قبيحاً ورائحته مختلفة، فيضطر شاربه أن يجعل النار في النصف المنطفىء، ويأخذ بتدخينه بشكل غير بروتوكولي كي يوازن بين المنطفىء والمحترق. أما سيجار صائب بك، فكان

احتراقه متوازناً دائرياً بحيث يبدو وكأنه يحترق بواسطة ماكينة الكترونية دقيقة جداً.

وكان سيجار بعض المدخنين يبدو جمراً من غير رماد.. أما صائب بك فكان يحرك يده بالسيجار بطريقة سحرية بحيث لا يسقط الرماد الاّ إذا أراده أن يسقط. وكانت هذه المزايا الضرورية عند المدخنين تتراوح بين مدخن وآخر، وتجعل رائحة السيجار نفسها منعشة وحادة عند البعض، وقاتمة خانقة عند البعض الآخر. ومن هنا كان صائب بك يُعتبر، بحق، واحداً من أبرع من حملوا السيجار في العالم. وكنت أنا استمتع بكل هذه المزايا إلى درجة أنني كنت أشجعه على التدخين عندما تكون السيدة تميمة قد قررت أن تحدّ من ولعه بهذا الشيطان المزعج.

وأخيراً، بلغ العياء بالسيدة تميمه، وعجزت عن اقناع صائب بك بالاستغناء عن السيجار فلجأت إليّ وقالت:

– صائب يحب السيجار كما تعلم. ويحبك أيضاً ويسمع رأيك بإصغاء. وقد قرأتُ أن احدى شركات السيجار انتجت أخيراً سيجاراً من نفس نوع سيجار صائب، ولكن بنصف حجم، أي بعشرة سنتمترات بدلاً من عشرين. فحبذا لو تتحايل عليه بحيث نستطيع أن نقنعه بالقصير، فنوفر عليه نصف الضرر الذي لا بدّ منه.

وجاء اقتراح السيدة تميمه على قلبي برداً وسلاماً. وفي المساء، قلت لصائب بك:

– والله يا صائب بك إن سيجارك يغريني. ومنذ سنوات وأنا أحمل في فمي مطلباً ثم لا البث أن أكتمه.

وقال صائب بك:

– وما هو؟

فقلت:

– إنه السيجار. فهل تسمح لي أن أدخت سيجاراً معك؟

ويبدو أنه شعر بالانشراح والنصر. فقد جاءه مدخّن جديد ولم تعد الست تميمه تواجه مدخّناً واحداً، بل مدخّنين اثنين.

وقال بسرعة:

– قم، وأحضر علبة السيجار، وهات واحداً لأعلّمك كيف تشربه.

ونهضت وجئت بالعلبة الفاخرة المزوّدة بجهاز للرطوبة يجعل السيجار دائماً نديًّا شهياً. وأخذ صائب بك سيجاراً بين يديه، والمقص الذهبي الخاص. وطلب مني أن اقترب لأرى. وفي غضون ثلاثة أو أربعة أيام استوعبت مبادىء تدخين السيجار على النحو الذي لقنني إيّاه صائب بك عندما قال:

● نأخذ السيجار من هنا، والمقص من هنا، ونركّز جيداً على مكان القص. فلا نقطعه قطعاً مائلاً. بل نحاول أن يكون القطع في منتصف السيجار من قمة رأسه من فوق.

وقطعهُ بحنكةٍ وخبرة.. ثم قال:

● نأخذ الكبريتة، ونشعل عود الثقاب، ثم نمرر عقب السيجار فوق النار لبضع ثوان حتى يبدو أسود. وعندما نشعر أنه جفّ تماماً من الرطوبة نبدأ بتجميره، فنشرقه قليلاً من الفم وندور بشعلة النار حول عجزه من تحت بحيث تتناوله من جميع جهاته.

● ولكي لا يميل الاحتراق يمنةً أو يسرة، لا نمسك بالسيجار كما نمسك بالسيجارة. فحشرهُ بين إصبعين كما نَحشرُ السيجارة، سيؤدي حتماً إلى انطفاء جانب منه بسبب ضغط الإصبع التي يكون السيجار فوقها. وكي نتحاشى ذلك، يجب أن نمسك بالسيجار بعناية. فنمدّده فوق الأصابع الثلاث: السبّابة والوسطى والبنصر. ونضع الإبهام فوقه. ثم نبدأ بتدويره بين هذه الأصابع الأربع بحيث لا نضغط عليه من أي جهة.

وكنت أنظر إلى صائب بك بعينيّ ويديّ وعقلي، وأراقبه وهو يدغدغ حبيبه السيجار كأنه ساحر ماهر. وكنت أطرح عليه بعض الأسئلة من نوع:

– ماذا يجري لو أنني بلعتُ بعض دخانه. فهل صحيح أنه مزعج؟

وقال صائب بك:

– الفارق بين السيجارة والسيجار كبير. فالذي يدخن

السيجارة «يشرق» دخانها دون شعور، وأحياناً يشرقه بلذة ونهم. وأما الذي يدخن السيجار، فهو يمارس عملاً بروتوكولياً له أصوله وتقاليده. وقد يكون مستحيلاً أن «يشرق» مدخّن السيجار دخان سيجارِه: لأنَّ دوران السيجار بين الفم والأصابع يجعل منه متعة خارجية فقط، في حين أن شارب السيجارة لا يلبث أن يمتص دخانها في خمس أو عشر دقائق كحد أقصى.

واتكلتُ على الله، وعلى صائب بك. وأخذتُ السيجار الأول بعد أن حضّره لي، وأشعلته بإشرافه، وأخذته بين أصابعي ورحت أمتص دخانه بنهم وسرعة.

ويبدو أن منظري لم يكن يليق بتقاليد تدخين السيجار، فراح صائب بك يوجّه ملاحظاته واحدةً بعد الأخرى.

– لا تضعه بين إصبعيك: فهذا سيجار وليس سيجارة، كما قلت لك.

– لا تدخّن السيجار وأنت ترتدي ثياب السبور إلا داخل بيتك، أو مع أصدقاء حميمين. أما أمام الأغراب، فيجب أن تكون أنيقاً في ملابسك كأنك في حضرة ملك.

– لا تستعجل بتدخينه. فهو ليس لعبة للتسلية. هذا سيجار يستغرق ما بين ساعة ونصف وساعتين، فلا تسرع ولا تتسرع.

وشيئاً فشيئاً.. وخلال أقل من أسبوع. بدأت استسيغ

تدخين السيجار الهافاني الفاخر، فأشعلُ واحداً في السابعة مساءً. وعندما نذهب إلى العشاء، أتركه في المنفضة بناء على تعليمات الرئيس سلام، فينطفىء وحده. وبعد العشاء، أغادر إلى الفندق وبقيَّة سيجاري في يدي. وما أن أهبط بالمصعد إلى بهو المبنى، حتى أُشعله، وأدخل به السيارة، ثم أدخل به الفندق، كأنني رجل أعمال من الطراز الرفيع. وكان موظفو الاستقبال ومدير التشريفات اللبناني الصديق حميد كريدي كثيراً ما ينظرون إليّ بشيء من الدهشة. فأنا لم أكن أدخن السيجار أمامهم منذ سنوات، وها أنذا لا أدخل في الليل إلا وسيجاري يترنح بين أصابعي، تماماً كما علّمني صائب بك.

وكان حميد كريدي، الفائق التهذيب والرقة. يُشْعرني دائماً بأن تدخين السيجار يليق بي. فأنا معتدل القامة بل أطول من ذلك بقليل، ونصف أصلع، وأنزل في أحد أفخم فنادق العالم في إحدى أفخم مدن العالم، وسيارتي في مرآب الفندق، ولا أبيتُ في غرفة عادية، بل في شقة فاخرة يُسمونها في عالم الفنادق «شقة ملوكيه» (سويت رويال)، ثم، أنا زبون هذا الفندق الفخم منذ سنوات. وهذه جميعها مظاهر لازمة من مظاهر مدخن السيجار.

وعندما كنت أقول لحميد إن ما ينقصني هو المال والأعمال الكبرى، كان يقول لي:

ـ لا تقلق. فكل من في هذا الفندق يحسبون أنك رجل

أعمال من الطراز الرفيع. ولا أحد هنا ـ باستثناء دائرة المحاسبة ـ يعرف أنك تشغل الشقة بسعر أصغر غرفة فردية.

لكن حميد كريدي كان يعرف أن صائب بك هو الذي يدفع أجرة الشقة، وأن مدام سلام هي التي تتصل به شخصياً كي يحجزها لي لمدة أسبوع، أو عشرة أيام كل شهر. وكان حميد كريدي الذي اصبح صديقاً لي وصديقاً لصائب بك، عند حسن ظننا به. وكان يُصدر أوامره لموظفي الفندق أن يزيدوا من اهتمامهم بي. لكنني لم أكن كثير الطلبات. فأنا آكلٌ شاربٌ ومدخّنٌ السيجار في بيت صائب بك. ولم أكن أحتاج في الفندق سوى لمضاعفة قوة الإضاءة. فقد كان نظام الإضاءة في الفنادق يزعجني إلى درجة غير معقولة، فكلما أردت أن أتصل بالتلفون اضطر لوضع نظارتي على عيني. وعندما أدخل إلى الحمام أرتدي نظارتي كي أحلق ذقني. لكن حميد كريدي أصدر تعليماته بحيث كان «الكهربجي» يلتحق بشقتي حالما أصل إلى الفندق وفي حقيبته مصابيح بقوة مئة واط للحمامات ومئة وخمسين واط لكل «المبادير»، في كل زاوية من زوايا الشقة. فاذا دخل أحد إليها كان على الفور يشعر أنه خرج إلى الشمس ولم يدخل إلى غرفة في فندق. والحمد لله.

وأما حميد كريدي، فقد بلغت صداقته لي مبلغاً جعلَهُ يقدم لي خدمات فندقية جليلة. فأنا منذ التسعينات أستطيع أن أذهب إلى أي هيلتون في أي مدينة في العالم، فلا أدفع

سوى خمسين، وأحياناً أربعين بالمئة من السعر الرسمي المسجل وراء الباب.

وأما السيجار، فقد اتقنت تدخينه كمبتدىء وليس كمحترف. وقد جعلني هذا أطلب من صائب بك ما كنت أخذت على عاتقي، أمام السيدة تميمه، أن أطلبه منه. وفي المساء.. قلت له:

– لقد قررت أن أدخن السيجار من الآن وصاعداً، فهل تسمح لي بذلك؟

وقال:

– أهلاً وسهلاً. من يمنعك من هذا؟

وقلت:

– لكنني أرغب في أن أدخن، أنا وأنت، من علبة واحدة.

فقال:

– تكرم عينك.

وقلت:

– شكراً. لكن سيجارك طويلٌ جداً. وأنا أرغب أن ابتدىء بسيجار أقصر منه

وقال:

– عال. بماكينة القص نستطيع أن نقسمه إلى نصفين

وقلت:

– بل إنني عثرت على موديل جديد مقصوص وجاهز وطوله نصف طول سيجارك ومن نفس الحجم

فقال:

– لا.. وأنت الصادق.. فالسيجار الذي تتحدث عنه هو غير موديل ومن غير مصدر. سيجاري من كوبا وسيجارك من دول الموز (اي: من إحدى دول أميركا اللاتينية التي تدير ظهرها للولايات المتحدة)

وقلت:

– وما الخطأ في ذلك؟

فقال ببسطاويته العذبة:

– هيدا شي... وهيدا شي.

ولما أعيتني الحيلة، خصوصاً وأنني أدعي معرفة لا أعرفها، لجأتُ إلى العاطفة، وقلت له:

– لكنني أرجوك أن تحقق لي هذه الأمنية، فندخن من هذا السيجار القصير معاً كي لا أشعر بالذنب فأهدر من عُلبتك من دون سبب. وقال:

– عال. فلنجرب.

ونادى السائق سعيد، وقال له:

– اذهب إلى مخزن دافيدوف واشتر العلبة الفلانيه، واشتر معها مقص للسيجار. وقل له: إنهما لي.

وذهب سعيد، وعاد سعيد ومعه علبه فاخرة بنصف حجم، وفيها خمسون سيجاراً. ووضعها مع المقص على طاولة المكتب حيث نعمل. وفتح صائب بك العلبة، فأعجب بشكلها وبمحتواها. وأخذ منها سيجاراً ومرّره أمام أنفه وشم رائحته مرة ومرتين وثلاثاً. ولمسه بأصابعه، وضغط عليه برفق وليونه ثم أعاده إلى قرب أنفه وشمّ رائحته مرة أخرى - وأخيراً.. قال:

- لا بأس. لا بأس. يبدو أن رائحته نيئاً طيبة. فعسى أن يكون مذاقه طيباً.. فإلى المساء.

وفي المساء، جلسنا كالعادة، وفتحت العلبة الجديدة - علبتي، وقدمتُ لصائب بك سيجاراً، وأعطيته المقص، مقصي. وأخذتُ سيجاراً لي ودخناهما معاً وأمامنا حبات من القضامة المغبّرة الخالية من الملح. وكانت السيدة تميمة مسرورة بما نفعل، على غير عادة.

ومرّ يومان.. والثالث ونحن على هذه الحال. وانحسر تدخين صائب بك إلى نصف ما كان عليه. وكان هذا بالذات هو الهدف الأساسي من كل هذه المسرحية.

وفي مساء اليوم الرابع، وكانت السيدة تميمه منشغلة بأمر ما، قال لي:

- هات علبتي.

فأتيته بعلبتي الجديدة.

فقال:

- لا. علبتي أنا. هاتها.

فقلت:

- كل العلب علبك يا صائب بك، لكن ما الذي جرى؟

ولم يجب. وأعطيته العلبة، فسحب منها سيجاراً من ذوات العشرين سنتمتراً. وأشعله وأخذ يقلّبه بين أصابعه بلذة وشوق فيما أشعلت سيجاري الصغير وجلست مندهشاً.

ودخلت علينا السيدة تميمه، ودخلنا جميعاً في حوار من حوارات المساء، وسرعان ما انتَبَهت لما يجري فقالت:

- هاه. ما القصة يا صائب. أراك تحمل السيجار الطويل؟

فقال لها بكثير من الاسترحام:

- يا عمي.. هذا السيجار الجديد ما أحببته. قصير، وشكله لم يعجبني.

وقالت السيدة:

- لكنه أقل ضرراً من سيجارك، على الأقل إلى درجة النصف.

وقال صائب بك:

- اذا كان هذا هو الهدف، فأنا مستعد أن أرميه من نصفه. سيجاركم لم يعجبني يا تميمه. فأنا أحمل السيجار

منذ ستين عاماً، ولم أجد نفسي غريباً عنه إلا هذا المساء. فليشرب شكري السيجار القصير واتركوني أمارس هوايتي على ذوقي.

وسُقط في أيدينا ولم ينبس أيٌّ منا ببنت شفة.

وبعد أسبوع غادرت جنيف إلى باريس.. وإلى جانبي في السيارة علبة التدخين الجديدة. وفيها مقص مذهب واكثر من أربعين سيجاراً.. دخَّنتها في حوالى ثلاثة أشهر، تخللتها ثلاث أو اربع زيارات عمل إلى جنيف. ومنذ ذلك التاريخ أصبح السيجار هوايتي فقط. أحبه وأعشق رائحته. وأقبل أن يُقدّم لي، ولكنني بقيت عاجزاً عن شرائه. وكظمت غيظي، ورضيت بما كتب الله لي. أشم رائحته، وأجلس قبالة مدخنيه، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

الفصل الرابع

العميد ريمون إده:
محطات وذكريات مجهولة

تماماً، في الدقائق الأولى، من بعد ظهر الأربعاء في العاشر من أيار (مايو) ٢٠٠٠، سكن قلب العميد ريمون اده، في غرفة صغيرة في مستشفى ابن سينا في الحي اللاتيني بباريس. كنت واحداً من أصدقائه، وكنا نشكل معاً ما قررنا تسميته «الشلّة»، وهي حفنة من الأصدقاء يقوم كل واحد منهم بدعوة الباقين إلى غداء كل خميس منذ ١٩٨٠. وقد كانت الشلة تضم خمسة أصدقاء ثم غاب بعضهم فأتينا بغيرهم، ودارت الدائرة كاملة.. فعندما توفي رحمه الله، لم يبق من أعضاء الشلّة القدامى سوى اثنين: أنا وعبد الحميد الأحدب.

ولأنني أحمل هذه الصفة، طلَبَتْ مني صحيفة الشرق الأوسط التي أعمل فيها أن أنعي وأكتب عن الفقيد فكتبت الآتي:

يمكن القول، دون تحفظ، إن العميد ريمون إده الذي توفي في منفاه الطوعي في باريس أمس، هو آخر فرسان

السياسة اللبنانيين، ولعله أكثر اللبنانيين ولعاً بلبنان السيد الحر الديمقراطي.

في ١٤ مارس (آذار) سنة ١٩١٣ ولد ريمون اميل أده في مدينة المنصورة في مصر. وكان أول لبناني يحمل اسم ريمون تيمناً بالرئيس الفرنسي آنذاك، ريمون بوان كاريه. درس في فرنسا وبيروت وتخرج محامياً منتصف الثلاثينات. وعندما أصبح والده إميل إده رئيسا للجمهورية عام ١٩٣٦ كان ريمون إده محامياً نشيطاً، لكنه لم يمارس المحاماة كما كان قبل رئاسة والده لأنه لم يشأ أن يقال عنه ابن الرئيس.

وفي القاهرة، وكان كثير السفر اليها والى الاسكندرية، حيث عاش طفولته الأولى في بيت جديه وخاله وخالته (آل سرسق)، عرف ريمون إده الحب لأول مرة، وخفق قلبه في باحة الفندق القاهري حالما رأى تلك السيدة الشقراء. وعندما دعاها الى فنجان قهوة عرف أنها فرنسية، تعمل في المسرح. أحبها وأحبته. وترك لبنان لبضع سنوات كي يعيش قريبا منها في باريس. لكن ظروف عائلته، ووالده الرئيس، إضافة إلى خوفه من «مؤسسة» الزواج، ساهمت كلها في عدم ارتباطه بحبيبته. لكن ريمون إده لم يترك مناسبة طوال السنوات الخمسين التي تلت تلك القصة، إلا وكان يستغلها ليرى.. أو يشاهد مسرحية.. أو يتحدث إلى الحبيبة الماضية.

في ١٩٥٣/٣/١٨ شكل ريمون إده في بيروت «حزب

الكتلة الوطنية اللبنانية» وانتخب رئيساً له، لكنه كان يفضل لقب عميد، فأصبح عميداً منذ ذلك الوقت للحزب.. وللأصدقاء.. وما أكثرهم.

في البرلمان اللبناني، كان ريمون إده لخمسين سنة متواصلة (باستثناء دورة واحدة) «ديك» المجلس النيابي، وأمير البرلمانيين، لم يكن يتحدث بلغة عربية فصحى، ولم يكن يتقنها أساساً. ولم يكن يتحدث الفرنسية التي اتقنها أبوه آميل اده إلا قليلاً، لكنه كان يتحدث باللهجة اللبنانية العامية. وكان المجلس يصغي له. والناس تكاد ترفعه على الراحات، لأنه كان صادقا ومباشراً وحميماً.

معظم إنجازات البرلمان اللبناني الكبرى تعود للعميد ريمون أده: من الاقتصاد الحر، الى اقتصاد السوق، الى سرية المصارف، الى قانون بإعدام القاتل، إلى تنفيذ هذا القانون، الى قانون الأبنية الفخمة، إلى حقوق المرأة، الى حرية الصحافة، الى ممارسة الديمقراطية المثقفة ثقافة عالية وشفافة بحيث كان يمكن للمرء أن يسمع ريمون إده وهو يصرخ بخصمه لاقناعه.. ثم يسمع الخصم يصرخ به كي يرد عليه فيفحمه أحيانا أو يعجز عن ذلك في معظم الأحيان في جو من المحبة والبهجة السياسية النادرة.

في ١٣ أبريل (نيسان) ١٩٧٥ اندلعت شرارة الحرب اللبنانية التي قضت على مائة وعشرين ألف انسان، وجرحت ٨٠ ألفا، وخلفت ٩٠ ألف معاق. وهجرت أكثر من مليون لبناني.

أدرك العميد بحدسه السياسي النادر، وثقافته العالمية العالية ونظافة شخصيته، أن هذه الحرب هي جزء من مؤامرة دولية تهدف إلى «قبرصة لبنان»، أي الى تقسيمه دولتين أو اكثر.

دخلت الأحزاب المسيحية الكبرى في الحرب: الكتائب.. والأحرار، ودعي حزب الكتلة الوطنية، حزب العميد، لخوض الحرب دفاعاً عن «لبنان» الذي كان وجوده مهدداً، طبقا لمنطق هذه الأحزاب وما يقابلها على الطرف الآخر. فرفض العميد أن يشارك أو أن يحمل السلاح، أو أن يساعد، أو أن يكون لحزبه أي علاقة بالدم والنار.

في منتصف صيف ١٩٧٥ التقى في بكركي كل من الرئيس كميل شمعون (الأحرار) والشيخ بيار الجميل (الكتائب) والعميد ريمون أده (الكتلة الوطنية) في حضور وشهادة البطريرك الماروني بطرس خريش. وكان الاجتماع مقرراً أن يكون أخطر لقاء ماروني في مواجهة «المؤامرة» رفض العميد رفضا قاطعا كل الحجج التي قدّمها زميلاه، وأعلن أمام البطريرك براءته من كل ما قد يحصل عن طريق السلاح. أما في الحرب السياسية الكلامية، فقد أعلن العميد الحرب على الكتائب، وأحياناً على الأحرار، وطالب بخروج القوات السورية من لبنان باتفاق بعد إجلاء القوات الاسرائيلية من دون قيد أو شرط.

تعرض العميد لثلاث محاولات اغتيال في لبنان نجا منها

بأعجوبة. وفي آخر ربيع ١٩٧٦ دعاه الرئيس المصري أنور السادات لزيارة مصر، مسقط رأسه ومرتع طفولته، فذهب وزار الاسكندرية وزار مكان بيت جده وقد اصبح شارعا. وعندما ذهب لوداع الرئيس السادات، قال له بلهجة حبية لأنه كان معجباً بالعميد.. ويحبه:

- وبعد.. عايز ايه مني يا عميد؟

وقال العميد:

- عايز أروح بلدي.

وقال السادات:

- أما هذه، فلا انصحك بها. فاسمع رأيي وأذهب إلى باريس او الى أي مكان آخر حتى إشعار آخر.

ويقول العميد أنه أخذ توصية الرئيس السادات بكل جدية. وطار الى باريس منذ صيف ١٩٧٦ وبقي فيها الى أن وافته المنية أمس عن ٨٨ عاماً.

.. قبل أسبوعين فقط تناولنا الغداء معاً على طاولة «الشلة»، وهو الاسم الذي نطلقه منذ عشرين عاماً على مجموعة من الأصدقاء نلتقي مرة كل خميس بدعوة من عضو من أعضائها، لكن الشلة نقصت واحدا.. ثم واحدا.. ثم واحدا الى أن اضطررنا لاستبدال غائب بحاضر.

وكان العميد، على عادته، صريحا منفتحاً الى أبعد حدود الانفتاح، ولكنه كان يؤكد أن الأزمة لم تنته بعد.

وعندما كان يخوض، وهو في باريس، محاولات ترشيح نفسه للرئاسة، كان يخضع للعتب، وأحيانا لغضب وتساؤلات بعض الأصدقاء. وذات يوم قلت له:

ـ وبعد، ما الذي تنوي أن تفعله بهذه الترشيحات؟

فقال:

ـ سأسألك سؤالاً.

وقلت:

ـ تفضّل

فقال:

ـ هل تراني رئيساً للجمهورية اللبنانية؟

فقلت: لا.

فقال:

ـ اذن.. لا تخف. فلن أكون.

ومات ريمون أده من دون أن يصبح رئيسا للجمهورية اللبنانية.. ولكنه مات رئيسا محبوبا من اللبنانيين من دون استثناء.

(صحيفة الشرق الأوسط الخميس في ١١/مايو/٢٠٠٠)

والواقع.. أن العميد ريمون اده كان يعيش في عالم مختلف عن عالم اللبنانيين بعض الشيء. فقد كان يعتقد أنه

إذا كان هناك لبنانيون متحضّرون، محبّون للحرية والديمقراطية، فمن باب أولى أن يكون وطنهم مثلهم متحضراً، حرًّا ديمقراطياً. لكن عندما وقع الوطن في الفخ مرةً ومرتين، وثلاثاً ولم يعلن اللبنانيون التوبة.. أدرك العميد أن نظريته خاطئة، فلا بدّ أن يكون أحد الطرفين مخلاً بأسسه. ولأن الوطن من أرض وماء وسماء.. فقد سجّل العميد في قلبه وذهنه أن الخلل موجود في اللبناني وليس في لبنان. وكان أمامه أن يخوض معركة تمتد إلى خمسين عاماً كي يتمكن من إصلاح هذا الخلل لكنه لم يخض منها سوى نصفها: من سنة ١٩٧٥ إلى ١٠ مايو سنة ٢٠٠٠ حيث هوى قبل أن ينجح.. وغادرنا إلى الآخرة.

وقد يكون صحيحاً أن العميد ريمون اده سيبقى غامضاً لدى معظم الناس، بل لدى غالبيتهم العظمى. فهذا الفارس في العِلم، والفارس في السياسة والفارس في المناقبية الوطنية والحزبية، وهذا السياسي الذي لم يرشِ أحداً، ولم يرتشِ من أحد، ولم يشفق على كاذب. ولم يساعد محتالاً، ولم يسع لتوظيف مخادع.. هذا الفارس الرجل لم يترك للتاريخ كتاباً واحداً. فلا هو كتب مذكراته.. ولا سمح لأحد أن يكتبها. بل كان يمنع الصحافيين من تسجيل مقابلاتهم له على آلة التسجيل.

كان شفهياً.. يجيب بطلاقه وسرعة وتدقيق. فاذا أخطأ، لم يمتنع عن الاتصال والاعتذار وتصحيح الخطأ. وكان راقياً

إذا أصاب.. فلم يحدث مرة واحدة أن تباهى بحكمِه أو بصحة رأيه.

وكان أكثر ما يلفت الناس في العميد، انه لم يمتنع عن تأليف الكتب فحسب، بل إنه لم يلق محاضرة واحدة، ولم يوافق على إلقاء الخطب والمواعظ. كان فقط يرضى بالمشاركة ببعض الندوات التلفزيونية، لكنه فعلها مرتين، ولم يعد إليها أبداً.

ولذلك، فإن ما سيقال ويُكتب عن العميد الراحل ريمون اده سوف يكون فقط بأقلام أو أفواه أصدقائه والقريبين منه. على ان هؤلاء أيضاً، سوف يكتبون، أو يقولون ما يناسبهم ونادراً ما ستخرج الحقيقة المجردة منهم. ليس لأنهم لا يحبونه، بل على عكس ذلك تماماً فقد يكون الحب أن يمتنع المحب عن ذكر مزايا الحبيب حتى لا يسيء إلى عذرية العلاقة.

لكن ريمون اده ليس رجلاً عادياً. ولذلك سأسمح لنفسي أن أذكر لقراء «الشرق الأوسط» بعضاً من محطاته المميزة التي لا يعرفها الكثيرون. بل لا يعرفها إلا قلة قليلة جداً من الناس. وهي محطات كنت شخصياً شاهداً عليها. سواءٌ من خلال جلسات طويلة معه، أو من خلال دقائق من صفاء الذهن وراحة البال، كان ينطلق فيها على سجيته، فيروي ويروي ويروي حتى نمتلىء فخراً، أو تمتلىء عيوننا دموعاً.. أو تنفتح أفواهنا اندهاشاً.

المحطة الأولى هي: الحب الأول في حياة العميد الراحل. وقد جرت أحداثها في مصر. وبدأت أولاً في مدينة الإسكندرية في قصر أخواله آل سرسق. وكان الفتى ريمون يذهب من بيروت إلى الإسكندريه في عطلة المدرسة الصيفية لكي يقضي أياماً في ضيافة بيت جده.

ويروي لنا العميد في يونيو من العام ١٩٨٥ القصص التالية:

«كنت في دار جدي في الإسكندرية، وكانت مؤلفة من ڤيلّا يحيط بها سور عال. وكان مسموحاً لي أن أركب الدراجة وأخرج بها إلى الطرقات المحيطة ببيت أخوالي لمدة نصف ساعة أو أكثر بقليل. وفي صباح أحد الأيام خرجت بدراجتي، واذا بعمال البلدية يغسلون الطريق بالماء في حين توزَّع رجال الشرطة بلباسهم الأبيض بمعدل شرطي واحد كل عشرين متراً تقريباً. ولم أكن أعرف السبب الذي من أجله انتشر هذا العدد الضخم من رجال الشرطة، لكنني عرفت لاحقاً أن الملك فؤاد سيمرّ من هناك. وفي لحظة من اللحظات أحسست أنني لم أعد قادراً على التحكم بمقود الدراجة، فرجال الشرطة يصرخون بي كي ابتعد، لكنني لم اكن أعرف إلى أين يريدونني أن ابتعد، وحاولت أن ألزم الرصيف لكنني تعثرت فسقطت أنا والدراجة في الماء أمام الشرطي الذي تبللت ثيابه بالماء الموحل، وانقلب لون بذلته الأبيض إلى بني غامق. وللحال رفعوني عن الأرض

واقتادوني إلى مركز الشرطة، فسألني الشرطي من أكون فقلت: أنا ريمون اده. وقال الشرطي.

ومن هم أهلك؟

فقلت:

ـ أنا مقيم عند جدتي هنا في ڤيلا سرسق.

فضحك الشرطي هازئاً بي. فلم يكن شكلي والوحل الذي غلفني والدراجة المخلّعة.. توحي له بأنني حفيد آل سرسق، اصدقاء الملك وأبناء الطبقة المعروفة في مصر ولبنان والشام.

ونهرني أخيراً، قائلاً:

ـ قل الحقيقة. من أنت؟

فقلت له من أنا، فغضب هذه المرة، وأودعني سجن المخفر، وهو غرفة صغيرة مجاورة يشغلها أحد رجال المخفر وزميلان له.

طال غيابي عن بيت جدي، فداهمهم القلق. وأرسلت جدتي رجال المنزل، والخادم، والعشي يبحثون عني في طرقات الإسكندرية. لكنهم لم يعثروا عليّ. أما أنا، فقد بدأتُ أجوعُ وأرتعش من الخوف. فشاهدني الشرطي الذي يقيم معي أو أقيم أنا معه في غرفته فقال:

ـ يا شاطر، طب قول الحقيقة. أنت مين وابن مين؟

فحلفت له مرة أخرى أنني أنتمي إلى هذا البيت الذي

وراء مخفركم تماماً. فهزّ رأسه يمنة ويسرة غير مصدق. وقلت له:

ـ دعني أصرخ من نافذة المخفر لجدتي أو لأحد عمال الحديقة، وسترى أنهم يعرفونني.

فقال:

ـ تعال. ورفعني إلى النافذة، وبدأت أصرخ: يا جدتي، يا أحمد، يا عثمان ولكن صوتي لم يصل لأن أحداً من هؤلاء لم يكن في الحديقة.

وانزلني الشرطي بين مصدق ومكذب. وغادر الغرفة وذهب إلى مدير المخفر وأبلغه أن الولد كان يُسمّي أهل الفيلا بأسمائهم، فلعلّه يكون فعلاً ضيفاً عندهم فلهجته الشامية تساعد على الاعتقاد بأنه آتٍ من قصر سرسق.

وبدأت الاتصالات. وأدرك مدير المخفر أنني كنت صادقاً، فدخل عليّ وأخذني من يدي بكل احترام وهدوء. وقال لي بالمصرية:

ـ مش كنت تقول كده من الأول؟

ولم أدر بماذا ارد عليه، فقد قلت فعلاً، ومن الأول، من أنا. لكن الأمور كانت تسير نحو اخراج الازمة من غضب آل سرسق.

وأرسلت جدتي من استعادني من المخفر، وانتهى الأمر بقبلات من مدير المخفر والشرطيين اللذين قاسمتهما غرفتهما

طوال سبع ساعات كاملة حتى كاد الخوف والجوع أن يأكلاني (انتهت رواية العميد).

* * *

عام ١٩٩١ ذهبت إلى مصر في مناسبة خاصة. وقبل المغادرة ذهبت إلى العميد وسألته إذا كان يريد شيئاً من مصر. فقال:

ـ أكيد. أريدك أن تذهب إلى الاسكندرية، إلى شارع كذا، وتبحث عن مخفر كذا.. حيث قضيت نهاراً كاملاً. وأرجو أن تتمكّن من تصوير المكانين.

وذهبت إلى القاهرة، ثم إلى الاسكندرية. وطلبت من سائق التاكسي أن يبحث معي ومع المصوّر عن المكان. وبعد ساعة أو أكثر. عثرنا على منزل آل سرسق جد العميد، لكنه أصبح شارعاً من شوارع الاسكندرية. وأما المخفر، فرأينا جدرانه. ولم ندخل، لأنه لم يعد مخفراً بل صار منزلاً عتيقاً شبه ساقط.

وعدت إلى باريس. وزرت العميد، وأبلغته أنني رافقت مصوراً صحفياً إلى بيت جدك، لكننا لم نعثر عليه لأنه أصبح شارعاً. وأما المخفر فقد أصبح منزلاً متواضعاً.

فابتسم العميد وقال:

ـ سبحان الله. ما أقسى الدنيا!

* * *

في دار سرسق بالاسكندرية، رأى ريمون إده كيف يتحرك الحب من المكان إلى الطريق إلى الهواء.. ثم يدخل إلى القلب صاعقاً كالبركان. وفي وقت واحد. أدرك ريمون اده الطفل كم هي الحياة متشابكة ومعقدة وحلوة ومريرة في آن واحد، وكيف أن السعادة ليست وليدة الجاه والمال والصالونات الواسعة، بل قد تكون في زوايا الطرقات والأزقة. بل في خيمة بدوية يروي قصتها على النحو الآتي:

«كنت ما أزال فتى في الرابعة عشرة من عمري. ومن بيت جدتي في الاسكندرية شاهدت مجموعة من الناس تنصب خيمة، وسرعان ما امتلأ المكان بالناس والراقصين والراقصات والألعاب البهلوانية الرائعة. وركضت اتفرج على هذا الحفل الذي لم أر مثله من قبل. ووقفت مع الواقفين، وخرجت طفلة لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، فرقَصَت حتى كادت الخيمةُ والشارعُ وبيت جدتي والاسكندرية والبحر المتوسط.. كلها.. أن تسقط على الأرض لشدة الفرح والبهجة والحبور الذي اضْفَتْه هذه الراقصة المبدعة على القلوب والنفوس معاً. وبعدما أنهت وصلتها. ركضتُ إليها وأنا في عمرها تقريباً. وهنأتها على طريقتي. مددتُ لها يدي فمدّت يدها. وابتسمتُ، فابتسمتْ. وشددتُ على يدها، فأرخت أصابعها. وللحال قفزَ شيءٌ في صدري، فأدركتُ أن هذه الفتاة بركان ملتهب. فابتسمتُ لها مرة أخرى، فابتسمتْ، ولم تسحب يدها من بين أصابعي، فقررتُ أن أحبها.. فأحببتها. وجئتُ إليها في اليوم التالي وحضرت

وصْلَتها الراقصة، ثم مددتُ لها يدي فمدت يدها. وجئتُ إلى الخيمة في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه.. وكنت في كل مرة أدفع لصاحب الخيمة قرشاً مصرياً كاملاً من مصروفي الخاص. وكانت حبيبتي تنظر ولا تكترث لما أدفعه لوالدها أو ـ لعله ـ مدير هذا السيرك العجيب. وقضيت عطلة الصيف كلها إلى جانب هذه الحبيبة، أنام في ڤيلّا سرسق وأصحو لأقضي النهار تحت الخيمة أنظر وأستمتع وأشهق لها كلما خرجت بثيابها الكثيرة الألوان المبهجة.

وأخيراً قلت لها: إنني أحبها وقالت هي أيضاً: إنها تحبني. ووعدتها أن اجيء لزيارتها شهراً كل عام، لأنني آتٍ من بيروت، وأهلي في بيروت، لكنني أقضي الصيف في بيت جدتي هنا.. في هذا المنزل. وأشرت بيدي إلى منزل جدتي فلم ترَ منه سوى السور.

في العام المقبل جئت إلى مصر، وانتقلت إلى الإسكندرية، وسألت عنها، فقيل لي إن السيرك قد انتقل إلى الجهة الأخرى من المدينة، فطلبت من سائق جدتي أن يأخذني إلى هناك، فأخذني.. ونزل من السيارة أمام الخيمة الكبيرة، بينما كنتُ أرقبه من النافذة. ودخل قليلاً ثم عاد، فقلت له:

ـ هاه، هل وجدتها؟

فقال:

ـ قالوا لي في الداخل إنها تزوجت.

وقلت له:

ـ من هي التي تزوجت؟

فقال:

ـ هي.. هي، البنت التي كنت تراها العام الماضي وكنت أرافقك في الذهاب والإياب، ألا تذكرها؟

فبكيتُ، ولكنني لم أجعل السائق يرى دموعي. (انتهى كلام العميد)

* * *

في يونيو ١٩٨٥، أجرت الاديبة كوليت الخوري حواراً مع العميد ريمون إده، خارج الدائرة السياسية، وكنا نتغدّى معاً بدعوة منه. وطلَبَت كوليت أن تدردش معه في شؤون الحب والمرأة، وبعد حوار دام أكثر من ساعتين قالت كوليت:

ـ أين انت من الحب من أول نظرة؟

فقال

ـ هذا يحدث.. وليس غريباً أن يحدث. وقد حدث معي.

وقالت كوليت:

ـ لماذا، اذن، لم تتزوج؟

فقال:

ـ لأن واحدةً لم ترض بي. ولا أعتقد أن هناك امرأة

ترضى أن تشاركني الحياة التي عشتها، المهددة دائماً المحاطة بالأخطار

وقالت كوليت:

ـ لكنني أعرف أن المرأة قادرة على تحمل أعباء ومخاطر زوجها

وقال العميد:

ـ ربما.. لكن المرأة تبكي وأنا لا أحتمل أن أرى امرأة تبكي».

المحطة الثالثة: في القاهرة وبيروت وباريس. وقد جرت أحداثها بعد حوالى عشرين عاماً من قصة غرام الإسكندرية. فقد تخرج العميد من كلية الحقوق في بيروت وأصبح محامياً في العام ١٩٣٦، وكان تدرّجه بشكل خاص في حالات الزواج والطلاق والعلاقات المتوترة بين الأزواج. وكان قراره هذا، التخصص بالدفاع عن القضايا الزوجية: لأنه لم يشأ أن يرتبط بقضايا سياسية أو تجارية، خوفاً من أن يجعله ذلك عرضة للنقد، أو يمنحه شيئاً من الافضلية على غيره.. باعتبار انه ابن رئيس الجمهورية.

وما لبث المحامي ريمون اده أن قرر بينه وبين نفسه أن يبتعد عن لبنان قليلاً، ثم يعود إليه قليلاً.. ثم يغيب لكي لا يفسح في المجال للقيل والقال. وكان يذهب إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية ثم إلى حيفا وتل أبيب.. وباريس، والكوت دازير الفرنسي.. عصفوراً نقَّالاً من زهرة إلى وردة.

وفي إحدى سفراته إلى القاهرة، وكان يهم بأخذ مفتاح غرفته في أحد فنادق العاصمة المصرية، وقعت عينه على سيدة شقراء تقف، هي الأخرى، في مواجهة الكونسييرج، تطلب مفتاحاً أو تطرح عليه سؤالاً مّا. وسمع ريمون اده صوت السيدة تتحدث بفرنسية أصيلة وأدرك أنها فرنسية الأصل والمنشأ واللغة واللهجة. فاستدار نحوها، وحيّاها بفرنسية لبنانية تكاد تكون أقرب اللكنات إلى قلوب الفرنسيين.

ومن كلمة إلى كلمة، عرفت السيدة أن الرجل الذي يحدثها هو المحامي ريمون إميل إده. ابن رئيس الجمهورية اللبنانية (تحت الانتداب الفرنسي)، وعرف ريمون اده أن السيدة الفرنسية الرشيقة التي يجلس معها على فنجان قهوة في باحة الفندق، هي ممثلة مسرحية فرنسية شهيرة.

وخلال إقامته في القاهرة، كرر ريمون إده لقاءاته بهذه الممثلة الجميلة، وما لبثا أن أصبحا صديقين. وتواعدا على اللقاء قريباً في باريس.

وجاء ريمون إده إلى باريس، والتقى صديقته الفرنسية. وشاهدها على المسرح، ففرح بها فرحاً شديداً. وأما هي، فكانت تشعر أن حضور ريمون اده يضفي عليها مسؤولية إضافية. فتتألق، وتسمو، حتى انتزعت اعجاب الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل.

وذات مساء، أعلنت حبّها له، قبل أن تدخل إلى

المسرح. وكان هو يريد أن يسبقها بهذا الإعلان لو لم تُفْصح عنه قبله. ودخل الحب إلى قلبيهما دخولاً عنيفاً.. فأصبح ريمون إده سجين قلبه وقلبها. يذهب إلى بيروت، لكنه سرعان ما يعود إلى باريس.. كي يرى حبيبته ويجلس معها الساعات الحلوة.

وأخيراً، طلبت منه أن يتزوجها، أو أن يذهب كل منهما في حال سبيله. ووقعت المفاجأة على ريمون اده قوية وعنيفة. وطرح على نفسه اسئلة لا تحصى.

- هل يتزوجها

- هل سيرضى بها أبوه الرئيس

- هل ستوافق والدته على زواجه من اجنبية؟

- هل وهل وهل..؟

وحاول أن يجسّ نبض العائلة، فصارح والديه بالأمر. أما الرئيس الوالد، فرفض الفكرة جملة وتفصيلاً، واعتبرها نزوة من نزوات الشباب. وقال لريمون:

- أنت عصفور طيّار. لا شغل. ولا مسؤولية. ومن الطبيعي أن تنصرف إلى حب هذه السيدة.

وقال ريمون:

- ولكنني أحبها. وأنا لم أنخرط في العمل السياسي والحقوقي في بيروت لأنني لا أرغب أن تطالني أسئلة الناس، ومن ثم تطالك أنت بشكل أو بآخر.

وقال الرئيس الوالد:

- شكراً لك، ولكنني لست موافقاً على قرارك بالزواج من هذه الفرنسية فاذا أصررت فاذهب اليها.

وأما الوالدة، فكانت أكثر رأفة به، ولكنها حاولت إقناعه بأن ما أصابه في فرنسا هو نتيجة لسفره وغيابه المتواصل، وليس مبنياً على قناعة وعقل ومنطق وأصول.

وازدادت حيرة ريمون إده.. فقرر السفر إلى باريس. وفي باريس يترك للظروف أن تبلغ مبتغاها. وطالت سفرته، وازدادت حيرته وحيرة صديقته.

وذات ليلة، (قال لي العميد بعد ٤٥ سنة على هذه القصة):

سهرت مع نفسي، فشاورتها وأشارت عليّ، فرأيت أنني لن أستطيع أن أتزوج من هذه الحبيبة. فلا أنا محب للزواج، ولا ظروفها تسمح لها بترك المسرح. ولا ظروفي تسمح لي بالبقاء في فرنسا وبلدي ووالدي بحاجة إليّ.

وفي تلك الليلة، قررت أن أصارح حبيبتي بهذا الواقع، فصارحتها، وافترقنا ليس على أساس فراق نهائي، بل على أساس صداقة متينة لن تنتهي بزواج. وكان مثل هذا العمل أمراً مألوفاً في فرنسا. فالصديقان يمكن أن يبقيا صديقين من دون أن تصل صداقتهما إلى الزواج.

وعاد ريمون إده إلى لبنان، وصديقته إلى المسرح. وكلما

زار باريس كان يذهب إليها. وبقي على هذا المنوال حتى آخر الثمانينات حيث كان يزورها أو يتصل بها تلفونياً وقد تقاعدت وأصبحت عجوزاً منذ أن غادر لبنان إلى مصر إلى باريس لاقامة طويلة سنة ١٩٧٦.

وذات جلسة حميمة بيننا. سألت العميد ريمون اده:

ـ قل لي يا عميد. هل أنت ضد الزواج كمؤسسة، أم انك لم تتزوج فوجدت نفسك خارجها؟

وقال العميد:

ـ يبدو لي أنني رجل عاطفي أكثر مما تتحمل أعصابي. وقد اثّرت عاطفتي الجياشة في قراراتي التي تخص حياتي الشخصية.. فكلما زرت بيتاً ورأيت فيه أطفالاً يبكون، أو مرضى، أو حَزَانى.. أشعر بانقباض شديد، وسرعان ما أترك الزيارة وأخرج. وكنت أسأل نفسي دائماً: «ماذا سيكون حالي لو أن هذا المريض أو هذا المحتاج، أو هذا الحزين هو ابني؟».

وقلت له:

ـ لكنك تحب الأولاد إذا لم يكونوا جائعين، أو حَزَانى، أو مرضى؟

وقال:

ـ نعم. لكن هل يمكن أن يكونوا هكذا دائماً؟

العشاء الذي لم يحصل

المحطة الثالثة: في روما.. في مطلع الثمانينات

صباح أحد الأيام.. اتصل العميد بي وفاجأني قائلاً:

ـ أُنشر خبراً في الصحف اللبنانية أن ريمون أده أجرى عملية جراحية وسيعود إلى باريس قريباً.

لم أسأله ماذا ولماذا وكيف. فالعميد هو العميد. أذا أراد يخبرني. واذا لم يخبرني ينبغي أن ألتزم الهدوء والصمت. فالذي أعرفه هو أنه غائب.. وكفى.

نُشر الخبر في بعض الصحف.. ومرت الأيام وعددها حوالى الأربعين. وعاد العميد مساءً إلى فندقه «برانس دوغال» في جادة جورج الخامس في الشانزيليزيه. وصباح اليوم التالي.. اتصل بي في مكتبي بالمجلة الحلوة الأنيقة الراقية: «المستقبل» وكنت أحملها على ظهري في تلك الأيام، ودعاني إلى غداء من شوربة العدس في مطعم فيو برلين (برلين العتيقة). وبعد الغداء فاجأني مرة أخرى قائلاً:

ـ سوف أروي لك خبراً. أريدك أن تحتفظ به سرًّا حتى أسمح لك أن تفشيه. فاذا متُّ فاذكر ما تشاء. وإذا لم أمت لا تذكر عنه شيئاً إلا برغبة مني.

وقلت مندهشاً.

ـ ما القصة؟

فقال:

ـ قبل شهرين كنت في روما وقد اتصلت بك من هناك دون أن أعلن لك المكان. وبعد وصولي بيومين دعاني صديق إلى عشاء في منزله، فوافقت وقلت له: الى اللقاء في التاسعة. فعرض أن يأتي ليصطحبني بسيارته فقلت:

ـ لا تقلق.. «فأنا أعرف روما جيداً، وسآتيك ماشياً لأنني أحب المشي مساء في روما

في التاسعة إلى خمس دقائق، خرجت من الفندق. وقبل أن أقطع الرصيف، توقفت سيارة فيها ثلاثة رجال. وقال احدهم

ـ مسا الخير يا عميد.. تفضل.

فظننت أن صديقي أرسل لي سيارته، فقلت لمحدثي:

ـ لا بأس، لا ضرورة لذلك سوف أذهب ماشياً.

فقال الصوت وصاحبه يترجل من السيارة:

ـ أبداً.. ستصعد معنا.

فصعدت معهم ووضعوني في المقعد الخلفي. إلى يميني رجل وإلى يساري رجل، والسائق وحده في الأمام.

وخطر لي أنّ في الأمر شيئاً. فهم أجبروني تقريباً على اختيار مكان جلوسي. وأنا في العادة لا أجلس في الخلف بل الى جانب السائق.. وسرعان ما قلت لهم:

ـ ما الأمر يا إخوان؟

وقبل أن أكمل عبارتي، ضربني الرجل الذي إلى يميني بقبضة يده على خاصرتي فصرخت، ثم لطمني الآخر على خاصرتي اليسرى، فارتعدت. ثم لم أعد أشعر بشيء.. فقد بلغ بي الألم حدوداً لم أعد أطيقها. وأخيراً أنزلوني إلى ملجأ أحد الأبنية الرومانية وأوسعوني ضرباً ولطماً وشتائم حتى كدت أن ألفظ أنفاسي. بل لقد لفظتها فعلاً. وما إن أفقت من إغمائي حتى وجدت نفسي في الملجأ ملطخاً بالدماء، حافي القدمين، أكاد أن أكون جثّة واقفة.

حملت نفسي بصعوبة إلى ما فوق الأرض.. ورفعت يدي أطلب تاكسي، لكن أحداً لم يقف ليسألني ما الخبر، أو إلى أين تريد. ويبدو أنهم ظنوا أنني سكران، عاطل عن العمل، أو قاتلٌ لتوّي، وأنوي الهرب.

وأخيراً توقف تاكسي. وبادرت للحديث معه بالإيطالية التي تعلمتها في طفولتي عندما كان والدي يرغب أن أتعلم اللاتينية. وقلت:

ـ أرجوك. أنا نزيل في فندق اكسلسيور في شارع ڤيا فينيتو. لست محتالاً، ولا قاتلاً. بل بالعكس. فقد تعرضتُ للخطف. أسرع، أسرع أرجوك. فترجل السائق وساعدني ووضعني في السيارة كما توضع حقيبة الثياب، وأسرع إلى الفندق.

وعلى الرصيف كان مدير الفندق ورئيس الاستقبال وكبار

الموظفين، وصديقي الداعي للعشاء ورهط من الأصدقاء ينتظرونني. وحالما رأيت مدير الفندق قلت له:

ـ ادفعوا للتاكسي، ولا أريد ضجيجاً. اصعدوا بي إلى غرفتي.

واندفع صديقي صاحب العشاء يصرخ مولولاً:

ـ سلامتك يا عميد. دخيل الله. ما الذي جرى؟. هل وقعت على الأرض؟ لماذا أنت في هذه الحال؟

فقلت له:

ـ أرجوك. خذوني إلى غرفتي، واطلبوا لي طبيباً فوراً، ولا أريد أحداً أن ينشر هذا الخبر أبداً.

.. وجاء الطبيب ففحصني، وقرر أن أذهب إلى المستشفى حالاً.

من المستشفى اتصلت بك وطلبت منك أن تنشر خبر غيابي بسبب العملية». (انتهى سرد العميد).

وحاولت أن أتكلم.. فقال قبل أن أفتح فمي:

ـ أعرف ماذا تريد أن تقول. الآن، ليس وقت الإعلان عن هذه العملية البشعة. اترك لي أن أحقق في الأمر، وسأطلعك أولاً بأول على نتائج ما فعلت.

ولم يعد العميد إلى هذه القصة، ولم أسأله عما توصل اليه في التحقيق. وانطفأ الخبر في صدري وفي ذاكرته.

* * *

بعد ثلاثة عشر عاماً من هذه الحادثة الغريبة، التي بقيت في صدري تعذِّبني كإنسان وتعذبني كصديق، وتعذبني خصوصاً كصحافي، لكنني لم أسمح لنفسي بالبوح بأي حرف منها، جرت الأحداث التالية:

ذات مساء. وكنا مدعوين مع العميد لعشاء في منزل الدكتور المحامي عبد الحميد الأحدب مع حوالي ٢٠ صديقاً. مررتُ أنا وزوجتي على فندق العميد كعادتنا، واصطحبناه إلى العشاء.

وكالعادة، عندما يكون العميد ريمون اده ضيف الشرف في العشاء، يمنح السيدات أول ربع ساعة، فيحاورهن، ويسألهن عن أحوالهن وأبنائهن. أما هنّ، فكن يصغين إليه بكثير من الإعجاب والسرور، وأحياناً بشيء من الغبطة وليس من الحسد، فالرجل الجالس إلى جانبهن قد تجاوز الثمانين، وما زال في مقتبل العمر. وقد ساعده على ذلك، ولعه بالبروتوكول وقدرته على حسن التصرف اللائق الذي كان يثير إعجابنا جميعاً. أما أهم اسباب فتوته فهو انه مقلٌ في الطعام.

ولسبب أو لآخر، كان عندي شيء من «الدالّه» على العميد. وكان ـ لشدة عراقته ـ يسمح لي أن أتطاول قليلاً، سواء في السؤال، أو في محاولات الاستفزاز التي كنت أتقنها معه. وكان الأصدقاء يعرفون ذلك. فكلما جمعتنا سهرة أو جلسة يبدأ بعضهم بتحريضي كي أبدأ الحوار

الساخن مع العميد الضيف. ولم يكن ذلك يزعجني، ولا كان يزعج العميد. ولو أنه أبدى انزعاجه مرة واحدة، لكنت امتنعت إلى الأبد عن محاورته أو استفزازه.

وخطر لي في تلك الليلة أن أطلب منه تعليقه الخاص على التمديد والتجديد والحكم والحكومة، فانطلق كالمدفع. فلما شملنا الصمت كي نسمع جيداً، عاجلته بالسؤال الاستفزازي الثاني وجلست بين الجالسين، وبدأت سهرة العميد التي لم تشهد باريس اللبنانية امتع منها، ولا أروع من حواراتها.

وأخيراً قالت سيدة البيت مخاطبة العميد، اكبر الجالسين عمراً وقدراً:

ـ تفضلوا، العشاء أصبح جاهزاً.

وقال صاحب البيت:

ـ كعادتنا يا إخوان. قوموا بنا نتوزع الطاولات. (وكان العشاء مقاماً على أكثر من طاولة بسبب كثرة المدعوين). وفي ذلك العشاء. كانت طاولتي بعيدة عن طاولة العميد.

أكلنا وتحلّينا وشربنا القهوة. وودعنا صاحبي البيت. وعدنا أنا وزوجتي مع العميد إلى فندقه وتمنينا له أحلاماً ممتعة.

وفي طريقنا إلى البيت قالت زوجتي:

ـ لقد سمعت اليوم قصة عجيبة. ولولا أنني حية أُرزق، لحسبت أن ما سمعته حلم من الأحلام.

وقلت:

ـ وما هو هذا الحلم؟

فسردت لي قصة حادثة روما من أولها إلى آخرها.

وقلت لزوجتي بعصبية:

ـ ما هذا الهراء الذي تقولينه؟ اي روما؟ واي قصة؟

وحلَفَت بالله العظيم انها سمعت القصة هذه الليلة، ومن فم العميد نفسه، وأضافت:

ـ ليتك كنت معنا. لكنت وقفت على تفاصيلها اكثر مني.

وظننت أنني أنا الذي أحلم. وذهبت بي أفكاري شرقاً وغرباً. وخطر لي أن زوجتي قد سمعت القصة مني وليس من العميد، وقلت لها:

ـ هل سمعت القصة الليلة بالذات؟

وقالت:

ـ نعم.. وكان معنا على الطاولة: فلان وفلان وفلانة وفلانة

وقلت في نفسي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ثم صرخت بزوجتي

ـ احلفي ايضاً؟

فحلفت ببناتنا الثلاث وبالقديسة ريتا وآل نخلة أنها صادقة.

نمنا تلك الليلة... بل نامت زوجتي فقط، ولم يغمض لي جفن.

وفي الصباح اتصلت بالصديقين اللذين كانا على طاولة العشاء التي جمعتهما بالعميد وسألتهما:

ـ ما هذه القصة الغريبة التي تقول زوجتي أن العميد رواها عليكم؟

فأكد كل منهما صحة الواقعة. وسرد لي القصة بكثير من التفصيل.

واتصلت بالعميد، وطلبت منه موعداً عاجلاً. وذهبت إليه مساء، قبل العشاء، وبعد القيلولة «الريمونيه» المعروفة: من الثالثة أو الرابعة حتى السادسة والنصف. ثم أصبحت حتى السابعة في الشهور الأخيرة، دون اتصالات، ودون تلفونات، أو مواعيد، أيًّا كانت الظروف. أما في الليل، فكان يسمح لاتصالات اللبنانيين أن تحوّل إليه أيًّا كان الهاتف، وأيًّا كانت الساعة.

... ودخلت عليه، وعلى عادتي بادرته دون مقدمات:

ـ شو يا عميد. ما قصة سهرة أمس؟

فقال:

ـ ما قصتها؟

وقلت:

ـ قيل لي إنك سردت قصة روما على شركائك في الطاولة.

فقال:

ـ هذا صحيح. وقد تساءلت أنا نفسي عن سبب ذلك، فما هو تفسيرك أنت للذي حدث؟

وقلت:

ـ وهل هناك تفسير للذي حدث غير أنك كنت تريده أن يحدث؟

فقال:

ـ نعم، لكنني أسألك عن تفسيرك لرغبتي بفتح هذه الصفحة أمس بالذات

... وفكرت قليلاً، ثم قلت:

ـ انت فعلت مثل مخرجي الأفلام السينمائية، أو كتّاب القصص المشوقة.

قال:

ـ كيف؟

فقلت:

ـ في السينما شيء اسمه فلاش باك. وفي القصة أيضاً. وهو يتألف من لحظة معينة يركز فيها المخرج على وجه البطل أو على نظراته.. أو على شيءٍ مّا. ثم يضفي عليه شيئاً من العتمة بحيث ينقلك مع البطل إلى الماضي أو إلى حادثة معينة جرت في حياته وألحت عليه الآن.

قال العميد:

ـ وكيف ذلك؟

قلت:

كنا نسهر عشية التمديد للرئيس. والتمديد للرئيس يذكرك بالرئاسة، والرئاسة اللبنانية تذكرك بوالدك الرئيس، ووالدك الرئيس يفتح لك الماضي والذكريات على شكل صور متلاحقة. ولا شك أنك ربطت بين ما حدث في روما وما أصاب ترشيحك للرئاسة منذ أربعة عهود رئاسية.

قال العميد

ـ هل هذا هو الفلاش باك؟

فقلت:

ـ حسب معلوماتي السينمائية... نعم هذا هو

... فنظر إليّ وابتسم دون أي كلمة.

وبعد..

فقد كنت معاهداً نفسي ألا أبوح بهذا السرّ أبداً، لا في حياته ولا بعد وفاته رحمه الله. لكنه هو الذي باح، وأنا علّقت: لا أكثر ولا أقل.

* * *

وساطة مع دمشق

المحطة الرابعة: في باريس. فقد تبرع الصديق فيصل ابو خضرا ـ وكان على علاقة متينة بدمشق ـ أن يذهب إلى سوريا ليعرف رأي المسؤولين بالعميد ريمون إده: إنساناً، وسياسياً، ومرشحاً للرئاسة اللبنانية، وكان أبو خضرا، وهو سعودي من أصل فلسطيني يرى أن من الظلم اقناع الناس بأن العميد عدوٌّ لسوريا وسوريا عدوّ له. فالعميد رجل سياسي، وسوريا دولة، ومن غير الممكن تركيب خندق لرجل سياسي وخندق لدولة. دعوني أرى ما الأمر، لكن لنجلس مع العميد أولاً.

وجلسنا مع العميد، فأبدى اقتناعاً مطلقاً بوجهة نظر الوسيط ابو خضرا وقال إنه فعْلاً لم يكن ولا يريد أن يكون عدوّاً لأحد: لا لدولة، ولا لحزب، ولا لشخص. أنا سياسي. والسياسي لا يملك بندقية، ولا يجوز، أن يحملها.

وأُعجب فيصل بآراء العميد، وكان معجباً أصلاً بنظافته وصراحته، وشفافيته، وجرأته. وقال:

ـ أنا ذاهب إلى الشام. وسوف أفاتح المسؤولين بهذا الموضوع. واسمح لي أن أؤكد لك سلفاً أن أحداً في سوريا لا يريد منك إلاّ أمراً واحداً هو: ألاّ تساوي بين الوجود السوري الشرعي في لبنان والاحتلال الاسرائيلي. ذلك أن من شأن هذا الموقف أن يعقد الأمور ويثير غضب السوريين

الذين لا يهضمون أن يضعهم أحد في العالم، في منزلة واحدة مع الإسرائيليين. أما عن تجاوزات بعضهم في لبنان أو في غير لبنان؛ وأما عن عصيان بعضهم أوامر رؤسائهم لجهة احترام الخصوصية اللبنانية، أو لجهة ارتكاب هذا البعض مخالفات وأعمالاً غير مسؤولة، فهذه أمور يمكن بحثها في دمشق، ولا أظن أن أحداً هناك يمكن أن ينفي هذه التجاوزات أو يدافع عنها.

وتم الاتفاق ان يذهب الصديق أبو خضرا إلى دمشق، ويحاول تقريب وجهات النظر بين العميد والسوريين. وقال أبو خضرا مختتماً الجلسة:

ـ أنا أرى أن ما يجمع بينك وبينهم أكثر مما يفرقكم. فانت مثلهم، تنظر الى الحرب اللبنانية على أنها مؤامرة لم يكن على اللبنانيين ان يدخلوا في ظلماتها.

- وأنت مثلهم تنظر إلى إسرائيل على أساس أنها عدوّ يحتل جزءاً غاليا من لبنان.
- ومثلهم تريد أن تحرر لبنان، وتجعل الحكم اللبناني نموذجاً للشفافية.
- ومثلهم تشتهي القضاء على الفساد والمحسوبية.

... وذهب فيصل أبو خضرا إلى دمشق، والتقى هناك عدداً من المسؤولين السوريين في طليعتهم الرئيس حافظ الأسد. وسأله عن العميد ريمون اده، وإمكانية المصالحة بينه

وبين دمشق. وقال الرئيس الأسد لفيصل إنه يحترم ريمون اده ويحبه ويعتبره أول ماروني أدرك عمق العلاقات السورية ـ اللبنانية، وقد زار دمشق لهذه الغاية والتقيت به واقنعني بضرورة فتح الحدود السورية أمام البضائع اللبنانية بعد خلاف أدى إلى إغلاق الحدود، وعاد إلى بيروت معززاً مكرماً ناجحاً في مهمته.

وقال فيصل:

ـ لكن العميد يحمل لكم المشاعر نفسها، غير أن ولعه بالديمقراطية وحرية الكلمة والرأي جعلت منه سياسياً يتعرض لبعض التهديدات والمضايقات، فاصبح يخشى على حياته.

وقال الرئيس الأسد لفيصل ابو خضرا:

ـ اذا كان خائفاً من السوريين، فأنا مستعد أن ارسل اليه فريقاً عسكرياً من قبلي شخصياً لحمايته. وإذا كان خائفاً من اللبنانيين، ففي استطاعتنا حمايته وتأمين أمنه بالشكل الذي يريد

وقال فيصل:

ـ يبدو أن محاولات الاغتيال التي تعرض لها. جعلته يضع كل معارضيه في سلة واحدة، وهو لا يخفي خشيته من عناصر غير لبنانية، ولذلك ذهب للإقامة في فرنسا.

وقال الرئيس الأسد:

ـ إذا كان هذا صحيحاً. فقد كان لبنان أفضل له

ولاقامته. وكان في مقدورنا حمايته بشكل جدي وحاسم. ذلك أن هجرته إلى باريس قد لا تشكل له الحماية المطلوبة، فإذا كان جهاز اجنبي يلاحقه فان باريس ستكون مكاناً أفضل لهذا الجهاز من بيروت.

... وعاد فيصل إلى باريس بعد أسبوع أو أكثر بقليل. واتصل بي من منزله الباريسي. فذهبت إليه فقال لي إنه عائد ببشائر طيبة. وقد أصبح باستطاعة صديقك أن يتكل على الله ويعود إلى بيروت. فالجماعة يحبونه ويحترمونه. وقد أخبرني الرئيس الأسد عنه حكايات لا توحي إلا بالاحترام والمحبة والتقدير. والذي قلته عن لسانهم قبل ان أترك باريس، قالوه لي دون أي زيادة.

وقلت له:

- عال. دع سرد التفاصيل حتى نلتقي العميد.

فقال لي:

- اطلبه، وخذ لنا موعداً معه. فإذا أحب... نتعشى معاً. وإذا أراد أن نلتقي قبل أو بعد ذلك، فلا مانع.

وأخذت التلفون واتصلت بالعميد في السادسة وخمس دقائق. ذلك انني اعرف أنه لا يستقبل تلفونات بعد الظهر إلا بعد السادسة. فالقيلولة أمرٌ لا يناقش مع العميد. وفي تلك الأيام كانت قيلولته تنتهي في السادسة لكنها امتدت إلى السابعة في أواخر التسعينات.

وقال العميد بعد ان فتش في دفتره الصغير عن موعد لغداء أو عشاء لنا معاً، فلم يعثر إلا بعد خمسة أيام:

- بعد خمسة أيام ليس ممكناً، أليس كذلك؟

فقلت له دون أن استشير فيصل.

- نعم.. هذا بعيد. فلنجلس على فنجان قهوة الآن.. ثم نبحث في أمر الطعام واللقاء على المائدة لاحقاً.

وقال العميد:

- إذن.. أنا في انتظاركما في السابعة.. أي بعد حوالى ساعة من الآن. ووافق فيصل.. وذهبنا فوراً كي يمكننا الوصول في السابعة، ذلك أن العميد دقيق في مواعيده إلى درجة مميزة.

قبل السابعة بعشر دقائق. كنا في الفندق. فطلبته بالتلفون.. فردّ فقلت له:

- هنا، شكري بك نحن في الفندق.. ولشكري بك قصة طويلة ملخصها أن العميد منحني هذا اللقب العثماني في إحدى السهرات باعتبار انه بك ابن بك ابن بك. ولما لم أكن بك ابن بك ابن بك قال لي ان حق الأقدميه يسمح له بمنحي هذا اللقب. ومن المؤكد أن العميد كان يمزح من جهته، وكنت راضياً من جهتي، لكن تفسيري لهذه المنحة هو أن العميد كان يصعب عليه أن يردد اسمي كاملاً: شكري نصرالله، لأنه يفتقر للموسيقى المطلوبه. فالياء قبل النون قد

تجعل المنادي يحذفهما فيصبح الاسم شكرالله.. او قد يستبدله بما هو اقرب إلى السمع واللسان فيقول نصري بدل شكري، أو يبحث عن حل آخر كما فعل العميد.. فصار الاسم عنده: شكري بك. وعندما كنت اتصل به إلى الفندق ولا أجده، أترك اسمي دائماً له فقط: شكري بك.

وقال العميد اخيراً:

ـ تفضلا،

فصعدنا إليه، وفتح لنا الباب وسلّم وطلب ان نجلس ريثما يكون قد أتمّ حلاقة ذقنه، وقال معتذراً.

ـ لو جئتم في السابعة لكنت جاهزاً وذقني محلوقة.

وجلسنا نشرب القهوة، أنا وفيصل أبو خضرا، ونقلّب في أوراق العميد وقواميسه، وما أكثرها. وأخيراً خرج من غرفته إلى الصالون الصغير، وجلس ولم ينبس ببنت شفه.

ونظرت إليه، وأنا أعرفه جيداً، فوجدت وجهه شاحباً على غير عادته عندما يستيقظ من قيلولته. وكان فيصل ينتظر مني أن أبدأ الحوار. فقلت للعميد:

ـ يبدو أن عندنا أخباراً ايجابية من دمشق فهل..

وقاطعني قائلاً:

ـ دعونا نشرب القهوة أولاً.. ثم نتحدث.

وطلب القهوة لنا من جديد، وطلب لنفسه فنجاناً. وبين

الطلب وحضور القهوة، وشربها.. مرت حوالى عشرين دقيقه اثقل من دهر كامل. فلا أنا كنت جاهزاً للاستفزاز كي لا يبدو أنني أشعلت فتيل النار. ولا فيصل أبو خضرا كان جاهزاً لفتح الحوار لأنه كان ينتظر ان يرد على أسئلة أو يطلب الرد على أسئلة، لكن العميد كان صامتاً لا يوحي بالمحاورة.

وأخيراً قلت:

ـ صديقنا فيصل.. جاء لك بعلبة من «كول وشكور» من دمشق. وكان هذا النوع بالذات من الحلوى العربية هو أحب أنواع الحلوى إلى العميد.. إلى درجة أنه أطلقها على عهد الرئيس سليمان فرنجية كله. فكان يسميه «عهد كول وشكور»..

وقال العميد:

ـ شكراً.. لكن الوقت الآن ليس وقت الحلوى.

وقلت:

ـ لا تخف. سيأتي وقتها. وسوف نأكل العلبة في خمس دقائق حالما نفتحها اليوم أو بعد اسبوع.

وانفرج الجو قليلاً.. وسرعان ما بدأ الحوار.

وباختصار شديد، قال الصديق فيصل:

ـ أظن أنني نجحت في زيارتي نجاحاً لم أكن أتوقعه.

والجماعة يحبونك ويحترمونك ولا يرون فوارق فكرية ومبدئية بينك وبينهم باستثناء أنك تساوي بين وجودهم والاحتلال الإسرائيلي. وفي ما يخص الترشيح للرئاسة، وعودتك الى لبنان، والانتخابات والعمل السياسي، فقد أكدوا لي أن ذلك شأنك وحدك. وليس لهم من طلبات سوى أن لا تضفي عليهم صفة الاحتلال لأنها تزعجهم وتثير غضبهم.

وقال العميد مخاطباً فيصل ابو خضرا.

ـ شكراً، شكراً لك، ولما قمت به. وقد سمعتك بكل جوارحي. اشكرك لما فعلت، وأشكرك لما قلت، ولكنني غيّرت رأيي.

وقال فيصل وقد بلغ به العجب مبلغاً:

ـ بماذا تغير رأيك يا عميد

فقال العميد:

ـ أرجو أن تتقبل اعتذاري الشديد. فأيّاً كان ما قلته لك قبل أن تسافر إلى دمشق. فأنا اعتذر لك عنه. فقد غيرت رأيي بما قلت لك وسأعود إلى مواقفي السابقة.

وقال فيصل:

ـ تقصد أنك ستعود إلى المواجهة؟

فقال العميد:

ـ لا.. أنا لست دولة كي أواجه دولة أخرى. أنا فقط سأحتفظ برأيي السابق وموقفي من سوريا والوجود السوري

في لبنان. «أنا ضد الاحتلال الاسرائيلي من جهة ولا أرى مبرراً لاستمرار الوجود العسكري السوري في لبنان من جهة أخرى».

وصُعق فيصل، وقال بشيء من العصبية:

ـ ما دام هذا رأيك النهائي.. فلماذا جعلتني أذهب وأتحدث وأحاور. ألا ترى أن كلامك الآن هو إساءة لكل ما فعلت؟

وقال العميد بتهذيب مطلق:

ـ ارجو المعذرة. أنا أعتذر لكل ما سببته لك من إحراج وقلقٍ. لكنني لن أغير رأيي السابق أبداً.

ونظر إليّ فيصل وقال بعينيه فقط:

ـ هيا بنا.

وشعرت أن الدنيا قد ضاقت في وجهي. فالموقف لم يعد يسمح لنا بالبقاء لحظة واحدة في هذه الغرفة، فقد يخرج الأمر عن أعصابهما، وندخل في ظلمة خانقة.

وأخيراً قلت:

ـ دعنا نذهب الآن يا عميد، لأننا مرتبطان بموعد. وسوف نواصل البحث في لقاء آخر.

... وودعنا العميد، وخرجنا وكان فيصل أبو خضرا في حالة من الغليان تكاد تحرق باريس كلها.

* * *

ومرت الأيام. وقلت للعميد:

ـ بيني وبينك. هل أنت راغب فعلاً برئاسة لبنان؟

فقال:

ـ وأنت ما رأيك؟

فقلت:

ـ في الحقيقة.. لا أراك رئيساً.

فقال:

ـ أنت قلت. فلن أكون. لكنني أريد للشعب اللبناني وللشعوب العربية، وللعالم كله أن يكتب ويعرف أنني أنا، ريمون اده، كنت مرشحاً لرئاسة هذا البلد العظيم الذي جنى عليه ابناؤه ولم يجن هو على أحد.

وبعد..

كان ريمون اده يقول: إنه باقٍ في فرنسا لكي يخدم لبنان، وكان الناس يسألونه:

ـ متى ستعود إلى لبنان؟

فيقول:

ـ بعد أن تنسحب اسرائيل من الجنوب.

وقد انسحبت اسرائيل.. ولو بقي العميد حيّاً أربعين يوماً أخرى لشهد عرس اللبنانيين وعاد إلى الوطن. لكنه عاد إليه

محمولاً على الأكتاف والأكف بدل ان يعود اليه فارساً على حصانه الأبيض. وقبل أن اصبح جسده جزءاً من تراب لبنان، لم يبق على تراب لبنان جندي اسرائيلي واحد. تماماً كما أراد واشتهى.

رحمه الله.

حمامة العميد

دخلت على العميد في الصباح الباكر من أحد الأيام، بناء على موعد سابق اضطراري. وكان العميد لا يزال في ثياب النوم. وأخذ التلفون وطلب لي فنجان قهوة ولنفسه فطوره الصباحي المعتاد، وكان يتألف من نصف برتقالة غريب فروت، وقطعتي كرواسون بالزبدة. ودخل خادم الفندق، ووضع الفطور والقهوة.. وأدخل معه صحف الصباح التي كان العميد ينتظرها وراء باب غرفته كل يوم.

وقبل أن أهمّ برفع فنجان القهوة إلى شفتي، التفت اليّ العميد وقال هامساً:

ـ اسكت.. لا تتحرك ولا تتكلم. خذ هذه الصحيفة وافتحها على صفحتيها أمام وجهك ولا تبدِ أي حركة.

وقلت هامساً:

ـ خيراً ان شاء الله. ما الخبر؟

فقال:

ـ اسكت: لقد جاءت.

ـ ومن هي التي جاءت

فقال:

ـ انها ماريا خوسيه. ها هي على الشرفة تنتظر فطورها.

ولم أتمكن من الصبر، فتحركتُ فطارتْ ماريا خوسيه وقال العميد اثناء غيابها.

ـ انها صديقة منذ زمن بعيد. فاذا أردت أن تراها، فاصنع ثقباً في الصحيفة وانظر من خلاله. فهي عائدة حتماً.

ثم نهض وخرج إلى الشرفة، وقطّع «الكرواسونه» إلى نتف صغيرة صغيرة.. ووضعها على طاولة الشرفة، ثم أغلق الباب وراءه ودخل وجلس وقال:

ـ اسكت.. وانظر من خلال الجريدة.. ولا تتحرك.

وللحال حطّت يمامة برية ضخمة على طاولة الشرفة، ورتّبت وقفتها، ونظرت يميناً ويساراً.. ثم بدأت تلتقط فطورها الجاهز.

وقلت للعميد:

ـ ها هي حمامتك قد غطّت.

ويبدو أن الحمامة لاحظت أنَّ في الغرفة ضيفاً آخر غيرها.. فطارت.

فقال العميد:

ـ ستعود.. ستعود. لكن.. حاول ألاّ تجعلها تراك. ثمّ، لمعلوماتك: هذه ليست حمامة، ولا يمامة.. انها دَلَم والدلم أكبر من اليمامة، ويعيش في المدن المزدحمة ولا يخاف كثيراً من الإنسان كالحمام واليمام.

وقلت:

ـ ها قد تعلمت كلمة جديدة، اذن.. هي دلم وليست يمامة. لكن كيف عرفت أنها هي وليست هو.

فقال:

ـ هذه قصة طويلة. فأنا أعرف هذه الحمامة ـ الدلم منذ سنوات، فهي في كل ربيع تأتي مع أسراب كثيرة من الدَّلَم، من إسبانيا، وكانت هذه من نصيب شرفة غرفتي. وعندما رأيتها لأول مرة، استغربت كبر حجمها، فأخذت أراقبها وأضع لها فتات الخبز على طاولة الشرفة إلى أن ألفت المجيء إلى هنا، والمكوث على الطاولة والشرفة لوقت طويل. وصرت أخرج اليها أحياناً فتطير ثم تعود.. الى أن أصبحنا أليفين. فأطعمها وأسقيها الماء فتأكل وتشرب وتغادر ثم تعود إليّ في الصباح كما ترى. ولما أصبحت صديقة المكان.. سميتها اسماً اسبانياً هو ماريا خوسيه.

وفجأة حطت حمامات أخرى على الشرفة، وأخذت تزاحم حمامة العميد على لقمة العيش. وكالأطفال، انتفض من مقعده وراح يلوّح بصحيفته لطرد الغرباء وإبقاء ماريا خوسيه وحدها.. لكنها كانت تطير مع سواها، وتعود وحيدة أحياناً وبصحبة أصدقائها أحياناً.. إلى أن انتهى الأمر بها أن عادت مع يمامة أخرى.

ونظرتُ إلى العميد، انبهه بأن غريباً دخل إلى الشرفة، فأومأ لي أن أسكت، فسكت، وأخذتُ أنظر إلى رفيقي الشرفة حتى طارا وحلقّا بعيداً.

وقال العميد:

ـ كل مرة، وفي كل موسم يحدث الشيء نفسه. والدَّلَم الآخر الذي رأيته دَلَمٌ مذكر، وهو زوج ماريا خوسيه. وقد زوجتهما بنفسي قبل عام.

وطلبتُ مزيداً من الشرح فقال:

ـ ذات صباح، جاءت ماريا خوسيه ومعها خمس أوست حمامات من نفس النوع والمصدر. وكان بينها دَلَمان ذكران. وأنا أعرف الطائر الذكر من رأسه، وقد تعلمت ذلك من الصيد. وعندما شعرت أن الشرفة ستمتلىء بالحمام، بدأت أهيِّىء المكان لماريا خوسيه فقط. فأضع لها الطعام وأقف خلف النافذة، أطرد كل غريب يزاحمها إلى أن أدركت هي أنني أرحب بها ولا أرحب بسواها. لكنني أخيراً، سمحت لأحد الذكرين بالبقاء إلى جانبها، فلم تمانع.. فأخذتُ أطعمه هو أيضاً إلى أن تحابّا وتزوجّا هنا على هذه الشرفة.

وأما نحن، فكنا نسأله دائماً عن ماريا خوسيه. فيقول أحدنا:

ـ ما أخبار حمامتك يا عميد؟

فيضحك، ثم يبتسم. ويقول:

ـ تعالوا تفرجوا عليها في الربيع على شرفة الفندق. لقد كبرت وصار عندها أطفال كثيرون، لعلهم يرافقونها من اسبانيا إلى باريس.. لكنني لست متأكداً من ذلك.

فنضحك جميعاً. وينظر أحدنا إلى الآخر، وندرك جميعاً أنّ في احشاء هذا الرجل قلباً مفعماً بالحبّ والأبوَّة.

وفي جلساتنا الخاصة، كنت أصارحه بأننا نرى فيه أباً عاطفياً إلى أقصى درجات المحبة والعواطف الأبوية. وكان يقول لي:

ـ لعل الله تعالى يحبني لأنه حرمني، بل جعلني ابتعد عن الزواج، فلو انني متزوج الآن وعندي أبناء وأحفاد، فان الله وحده يعلم كم كنت سأكون عميداً مختلفاً.

ـ وما هو وجه الاختلاف يا عميد؟

فيقول:

ـ لا شك أنني كنت سأكون أقل صلابة، وأكثر مرونة ومهادنة مع الخصم والصديق والعدوّ على حد سواء. فأنا لا أستطيع أن أطيق ولداً يبكي أو يشكو، وأكون أنا سبب بكائه».

ثمّ، يقول أحياناً وبجدية مطلقة:

ـ أشكر الله انني لست متزوجاً وليس لي أبناء. فلو كان الأمر كذلك، وكنت قاضياً مثلاً، وكان أبنائي محتاجين للمال أو للقمة الخبز، فلا شك أن حكمي لن يكون عادلاً. وأنا اكبر هؤلاء الذين يستطيعون أن يفرّقوا بين واجباتهم في الوظيفة وواجباتهم البيتية، ولا شك أن هؤلاء أعظم مني بدرجات. وأنا لا أفهم كيف تعتبرون الشفافية ونظافة اليد

أمراً عظيماً في حين أن واجبي الأول أن أكون نظيف اليد والسمعة. فهل يجوز أن نعطي المواطن النظيف جائزة، وواجبه أن يكون نظيفاً؟

* * *

كيف ولماذا مات

في عشاء على شَرَفِه، كان العميد ريمون إده يرتدي سترة زرقاء منقّطة بالرمادي، وبنطلوناً كحلياً غامقاً، وربطة عنق فيها شيء من الأحمر الفاقع، إلى جانب الأزرق المتآلف، مع الجاكيت والبنطلون. وكان العميد يحب ارتداء اللونين المتقاربين في السُترة والبنطلون. ولم يسبق لأحد أن رآه، في السنوات العشرين الأخيرة، يرتدي بدلة من لون واحد.

وعلى رغم أن هذا الاختلاف في البنطلون والجاكيت كان يبدو لبعض الناس مخالفة واضحة لقواعد البروتوكول واللباس الرسمي، إلا أن العميد لم يكن يعتبر نفسه في باريس، خاضعاً للبروتوكول. فكل اللبنانيين أصحابه، وكلهم أصدقاؤه، وليس ما يمنعه من ارتداء السبور في زياراتهم سواءً في الليل أو على الغداء، لكن سبور العميد كان غاية في الأناقة البسيطة المبسطة.

وفي هذا العشاء، كان العميد ـ كعادته ـ نجم السهرة، ورأس الطاولة، وفارس المتكلمين، وأصحاب الرأي القاطع. وعلى الرغم من ديمقراطيته وحُسْن إصغائه للآخرين، واحترامه لأقوالهم وأفعالهم، إلا أنه لم يكن مستعدّاً للتنازل عن رأيه في شيء، أو في حادثة، أو في شخص. وكان هذا العناد بالذات هو العلامة المميزة التي تجعلنا معه لا نملك إلاّ أن نقول نعم إذا وافقنا، ونئنّ أنيناً ملحوظاً إذا عارضناه.

وعندما كان يسكت قليلاً ليسمع رأينا بوضوح، كنا لا نبخل عليه بكلمة: نعم. ولكن خفيفة.

على العشاء، تحدث العميد بكل شيء. حكى قصة وزارة الأربعة الكبار التي كان رابعها في أعقاب أحداث ١٩٥٨ اللبنانية، حيث كان الرئيس المنتخب حديثاً اللواء فؤاد شهاب يأمل منها أن تكون صغيرة العدد ضخمة المفعول. وكان العميد فيها يحمل عدة حقائب لكن أهمها حقيبة وزارة الداخلية، حيث أسندت إليه مهمة ضبط الأمن في لبنان بعد خمسة أشهر من الدماء والدمار والقتل والتقتيل. ولعل العميد، وزير الداخلية، أصبح حبيب الجماهير اللبنانية بسبب هذه الوزارة بالذات. فهو لم يكن عادلاً فحسب، ولم يكن حازماً فحسب، ولا شجاعاً فحسب، بل لقد تحدى بعض رجال الدين المسيحيين والمسلمين كي يتمكن من إحقاق القانون والعدل. على أن هذا التحدي لم يأت عليه بالضرر، بل إن رجال الدين الكبار باركوا أعماله وأفعاله وتصرفاته لأنهم رأوه كالسيف، لا يحيد عن الحق والعدالة أيّاً كانت الظروف.

وعلى هذا العشاء، روى لنا قصة خلافه مع الرئيس شارل حلو في ديسمبر ١٩٦٨، وكان أيضاً وزيراً للداخلية. وكان العميد يرفض الاعتراف بأنه من جيل الرئيس حلو، فاذا ذكّرناه بأن ثمة من يؤكد أنكما أبناء صف واحد في كلية الحقوق في اليسوعية، كان ينتفض قائلاً:

ـ لا، لم يجمعني مع شارل حلو صف واحد. لكننا كنا معاً قبل البكالوريا وبعد البكالوريا. هو في الثالث وأنا في الأول.. أي أنه يكبره بعامين أو أكثر.

وكان الرئيس شارك حلو، وهو الأديب البالغ التهذيب والديمقراطية ـ يشكل بالنسبة للعميد اده موضوعاً دائماً للحديث والتعليق والإثارة. والحقيقة أن الزعيمين لم يكونا عدوين بالمعنى السياسي. بل كانا صديقين لدودين. ولعل مرد ذلك عائدٌ إلى شخصية الرجلين. فالرئيس شارل حلو لم يكن يحب الصراع السياسي، لا بالكلام، ولا بالكتابة، ولا بالعمل. كان أشبه بالراهب الزاهد بكل ما يمثل الصوت العالي، والحجة المدعومة بالحناجر.. في حين كان العميد مقاتلاً بارعاً لا يرتاح له بال حتى يرى فريسته السياسية مهزومة منكسرة.

على أن هذه «العداوة» الحميمة الحلوة، لم تمنع الرئيس حلو من أن يسعى لتسمية العميد إده وزيراً في حكومة الرئيس رشيد كرامي (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) فتسلم حقيبة وزارة الداخلية وبقي يحملها حتى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٨ حيث استقال بطبل وزمر وخناقة حقيقية.

ويروي العميد في تلك الليلة، قبل العشاء، قصة استقالته على النحو الآتي:

«في ٢٥/ ١٢/ ١٩٦٨، أفقت من النوم باكراً، على عادتي. وعلى عادتي فتحت الراديو على محطة لندن العربية (B.B.C) فسمعت نشرة الأخبار، وكانت تستهويني لأن فيها مقداراً كبيراً من الإعلام الذكي. ومن بين ما سمعت في هذه النشرة أن الحكومة الاسرائيلية تعتبر لبنان مسؤولاً عن هجوم الفدائيين الفلسطينيين على طائرة العال الاسرائيلية قبل يومين في مطار آثينا اليوناني. وقالت النشرة إن اسرائيل تملك معلومات مفادها أن الفدائيين الذين قاموا بالعملية جاؤوا من مطار بيروت وبطائرة لبنانية».

وعلى الفور، ارتديت ملابسي وذهبت إلى القصر الجمهوري حيث كان مجلس الوزراء منعقداً كعادته كل أربعاء. وتحدث الوزراء وطرحوا مواضيع مختلفة. ولما جاء دوري قلت للرئيس حلو والوزراء: إنني أخشى هجوماً اسرائيلياً على لبنان، وعلى المطار بالذات. فالرجاء اصدار الأوامر للجيش كي يتخذ الاحتياطات اللازمة.

ودار لغط وهرج ومرج في جلسة مجلس الوزراء. فمن سائل عن مصدر معلوماتي، إلى مخفّف من أهمية الأمر، إلى معترض إلى.. إلى أن قلت أخيراً:

ـ أرجو أن تأخذوا هذا التحذير بعين الاعتبار. فاسرائيل هددت رسمياً وعلناً بضرب مطارنا.

وأخيراً قال الرئيس:

ـ حسناً، ابلغوا قائد الجيش كي يتصرف بما تمليه الظروف.

وخرجنا من الجلسة، وعدت إلى عملي، وبيتي. ومساء السبت في ١٩٦٨/١٢/٢٨ خرجت باكراً لتلبية بعض المواعيد، وكنت مدعوّاً إلى العشاء في أحد مطاعم الروشه، وبينما نحن في المطعم إذا بشارع الروشة يعج بالراكضين والمندهشين والرائحين والآتين في كل اتجاه. وسألت عن الخبر فقيل لي: انظر.. المطار يحترق. ونظرت ورأيت. فتركت العشاء، وطلبت من سائقي أن ينقلني فوراً إلى حيث الانفجارات والنار. وعلى طريق المطار كان رجال الشرطة يملأون المكان. يمنعون السير، ويحذرون الناس من مسامير رمتها الطائرات الاسرائيلية على طول الشارع المؤدي إلى المطار. وأخيراً وصلت إلى المطار، وللفور طلبت من أحد الضباط أن يبلغ قائد المطار أنني هنا. وجاء القائد، وقال لي أن ثلاث عشرة طائرة مدنية من طائرات شركة الميدل ايست قد احترقت تماماً، وأن المطار تعرض لدمار في مدرجاته ومبانيه. وقال ان ٤ حوّامات إسرائيلية هاجمت المطار والطرق المحيطة به والمؤدّية إليه في حدود الساعة التاسعة و١٠ دقائق من هذه الليلة.

وسألته:

ـ والجيش، أين كان الجيش؟

فقال:

ـ لا وجود للجيش هنا يا سيدي. فالمطار مدني، وحراسته من اختصاصنا نحن، رجال الشرطة، ونحن لسنا مزودين بأسلحة مضادة للطائرات المغيرة.

وصعقت. وطلبت منه أن يسجل لي تفاصيل العدوان بطريقة رسمية، وللفور اتصلت بالرئيس حلو وقلت له:

ـ ما هذا الذي يجري؟.. ألم أقل لكم قبل أربعة أيام إن اسرائيل ستضرب المطار. فليكن الجيش مستعداً لحراسته؟

وقال الرئيس حلو:

ـ هدىء من روعك، وأعصابك. إنه عدوان عسكري مسلح على مطار مدني. والجيش لا يستطيع إن يدخل إلى مدارجه ومبانيه كي لا يفقده صفته المدنية..

... ولم يطل بي الوقت كثيراً، فقدمت استقالتي، فقبلها الرئيس. ولم أكن لأقبل بأي عذر لعدم تدخل الجيش ضد عدوان خارجي بهذا المقدار من الوحشية. (انتهت رواية العميد).

* * *

وكالعادة.. تعشينا وقلبنا صفحة الحروب إلى صفحات متعددة، أهمها سرد آخر النكات المتوفرة في السوق اللبنانية والسوق المصرية، والتي تتناول بذكاء فطري نقداً ولسعاً للساسة والزعماء والرجال والنساء دون استثناء.

في حدود الواحدة صباحاً ـ وعلى غير عادة ـ انفضّ العشاء. لكن، كالعادة كنت سأصطحب العميد إلى فندقه. وهبط الساهرون بالمصعد ثلاثةً ثلاثةً لضيق سعته. وكان آخر الهابطين العميد اده وبصحبته السيدة دونا بركات الترك

القنصل اللبناني في باريس آنذاك.. وزوجتي. وبقيت فوق أنتظر عوده المصعد. فصعد المصعد وفيه زوجتي التي ملأها الخوف والعياء.. وصرخت بي قائلة:

ـ اسرعوا.. اسرعوا.. لقد سقط العميد على الأرض ولم يعد يتكلم. وأسرعت بالهبوط.. فاذا بالعميد كتلة من اللحم والعظم على حافة سلّم المبنى في صورة تبعث على الهلع. وقلت له والدنيا ليل وفي باريس بالذات، بصوت خافت جداً:

ـ عميد.. عميد، هل أنت بخير؟

فقال العميد:

ـ نعم.. أنا بخير. ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف. وأعاننا الله، فرفعناه جميعاً، وأحطنا به من كل الجهات، وقلت له:

ـ سنصعد إلى حيث كنا. نشرب ماء، ونرى ما الأمر.

ولم يكن العميد، قادراً على الرفض، فسكت. وصعدنا إلى حيث كنا قبل قليل نحارب ونضحك ونأكل ونشرب. وفوجىء أصحاب البيت وكان الساهرون الآخرون قد عادوا إلى منازلهم. وأومأت إلى سيد البيت أن يطلب الدكتور سعد الخوري وهو أحد اصدقائنا ورفيق سهراتنا. وسمع العميد ما قلت، فنظر إليّ وقال آمراً:

ـ لا.. لا اريد أن أرى طبيباً. أنا بخير. أريد أن أشرب ماء فقط، وأعود إلى الفندق.

وعاد العميد إلى الفندق بسيارة دونا الترك وبقيت في منزل صاحب الدعوة كي أتمكن من ابلاغ الدكتور سعد. ورن الهاتف في منزل سعد حتى أفاق كل من في البيت. وبادرته قائلاً:

ـ أعذرنا يا حكيم، فقد حصل كذا وكذا. ورجائي إليك أن تسبقني إلى الفندق (حيث ينزل العميد).

وقال الدكتور سعد:

ـ هل طالت غيبوبته؟

فقلت:

ـ.. لا أظن. فقد تحدث معنا وكان على ما يرام.

فقال:

ـ لا بدّ أنه كان مرهقاً وصعد ضغطه صعوداً مفاجئاً. أما أن أذهب اليه الآن، فسوف يكون ذلك صعباً، لأن العميد لن يقتنع بما نريد أن نفعل. والأفضل أن أتصل به بالتلفون، فإذا أراد اذهب اليه واذا لم يرد، فلا حول ولا قوة. والصباح رباح.

واتفقنا على ذلك. واصطحبت زوجتي، وذهبنا إلى الفندق. واتصلت به من مكتب الاستقبال، فردّ بعد وقت طويل. وقلت له

ـ أنا وزوجتي هنا، سنصعد إليك

فرفض.. قائلاً:

ـ خذ زوجتك وعد إلى بيتك. لا أريدكما هنا أبداً. وقد كلمني سعد وطمأنته وطمأنني. فاذا طلع الصباح فلكل حادث حديث.

ولم يكن ممكناً أن أدخل مع العميد في سجال وحوار.. فعدت وزوجتي إلى البيت.

في السادسة صباحاً رن جرس التلفون في غرفتي.. على عشرين سنتمتراً من أذني، فأفقتُ مذعوراً وقلت لزوجتي:

ـ اللهم اجعله خيراً، مات؟

ورفعت السماعة، واذا بالعميد يقول:

ـ صباح الخير. أنا بخير. أشكرك على ما فعلت. لم أكن أريد أن ترى زوجتك حالتي ليلة أمس. الآن أنا بخير. وسوف يأتي الطبيب إليّ بعد ساعة من الآن. قدمي فقط هي التي تؤلمني. ويبدو أنني أخطأت نزول السلم فصدعت رجلي وسقطت على الأرض. شكراً لك ولزوجتك. فقد آن لك أن تنام.

ونمت. ولكن العميد كان جبارّاً فلم يقل لي الحقيقة التي أعرفها جيداً.

ومنذ تلك السهرة لم يعد ممكنا للعميد أن يطأ الأرض بقدمين ثابتتين. كلما تغدينا معاً، أو تعشينا معاً، كنا نلاحظ أن مشيته بطيئة جداً. وأحياناً تكون خطرة جداً، فنحسب انه

سيسقط على الأرض.. لكنه كان عنيداً، لا يسمح لأحد أن يساعده، أو أن يتأبط ذراعه.

* * *

في ١٤ نيسان/أبريل صباحاً، أصيب العميد بألم في رأسه، فما لبث أن سقط مغشياً عليه. وعندما أفاق.. اتصل بطبيبه فحضر فقرر أن يصحبه إلى المستشفى (مستشفى ابن سينا). وفي ابن سينا في قلب الحي اللاتيني في باريس قضى العميد ثلاثة أيام وعاد إلى الفندق بعد ظهر الاثنين في ١٧ نيسان/ابريل.

صباح اليوم التالي، الثلاثاء زاره صديقه انطوان تفونكجي ودخل معه في حوار ساخن، لكن العميد لم يبح بشيء. وعندما قال له انطوان إنه يعرف تماماً ما حدث واين كان طوال الأيام الأربعة الماضية، اعترف العميد ولكنه قال:

ـ لعلي أشكو من ألم في أحد ضلوعي فقط.

في الثاني من أيار مايو ٢٠٠٠ كنا معاً في الغداء التقليدي الذي نسميه «غدا الشلّة». وكان العميد أنيقاً كعادته، وطلب طعاماً قليلاً جداً ولم يأكل منه إلا قليلاً. وكان وجهه شديد الاصفرار إلى درجة أنني كنت أراه أبيض وقلت لجاري على المائدة، محمد الدويدي:

ـ هل لاحظت لون العميد؟

فقال:

ـ نعم.. لقد لفتني ذلك. وهي المرة الأولى أراه بهذا اللون الأصفر ـ الأبيض.

● مساء الخميس في الرابع من مايو، كان العميد مدعواً إلى عشاء في باريس. لم يأكل ولم يكن مرتاحاً.. ولاحظ الساهرون «أن العميد ليس على ما يرام».

مساء الجمعة كان مدعُوّاً للعشاء في منزل الزميل ياسر هواري وكان ياسر هواري وزوجته ليلى من أكثر الناس قرباً من العميد. سهر وتحدث قليلاً ولم يأكل.

صباح الأحد في السابع من مايو. كان العميد يستعد لاستقبال ضيوفه ككل أحد، حيث يلتقي بهم دون موعد في ما يسمى: البيت المفتوح. وصباح ذلك اليوم سقط مرة أخرى على الأرض، فجاءه الطبيب وشعر ضيوف الأحد المنتظرون في صالة الاستقبال أن أمراً قد حدث. فصعد اليه صديقه نديم دكّاش الذي يدير حوار البيت المفتوح كل أحد. وطلب الدخول فقال الطبيب: ممنوع الدخول، لكن نديم دكّاش لم يكن يسمح لأحد أن يمنعه من الدخول على العميد، فدخل ورأى العميد في حالة صعبة، فطلب نقله إلى المستشفى بسيارة اسعاف، فرفض العميد لكنه ذهب معهما بسيارة الطبيب.

نهار الاثنين تحلق حول العميد أطباؤه وقلة من أصدقائه وابن شقيقه كارلوس، وأعلن الطبيب: «أن حالته ميؤوس

منها». فبكى الدكتور صخر سالم الذي يحمل للعميد محبة الابن لوالده، فالعميد هو الذي كان وراء سفر صخر إلى باريس ودخوله كلية الطب ونجاحه بامتياز. وكان العميد كثيراً ما يحدثنا عن صخر ـ وأيّ فتى كصخر ـ وقال العميد لصخر:

ـ يا عيب الشوم عليك. رجل.. وتبكي؟. ماذا تركت للنساء اذن؟

وقال كارلوس إده هامساً لأحد الحاضرين:

ـ يجب أن ننقله إلى بيروت. فاذا كان لا بدّ من الموت، فليمت في بيروت.

وقال الطبيب الفرنسي:

ـ لا فائدة من ذلك. لن يكون قادراً على السفر. إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ولفظ نفسه الأخير في الواحدة و٢٠ دقيقة بعد ظهر الاربعاء في العاشر من مايو عام ٢٠٠٠.

لقد عاش وحيداً طوال عمره. لم يزرع سرّه في صدر أحد. ولم يسمح لأحد في الدنيا أن يَلِجَ عرينه الداخلي. كل الناس يحبونه. وكل الناس يبتعدون عنه بنفس المسافة. كان في وسط الدائرة تماماً، ولست أعرف إنساناً أو صديقاً استطاع أن يقترب منه أكثر مما كان هو يسمح له بالاقتراب.

سقط مغشياً عليه أمامنا جميعاً، وعندما نهض قال:

ـ لقد زلّت قدمي فقط.

ارتفع ضغطه إلى ما فوق العشرين، وعندما أفاق قال:

ـ يبدو أنني أكلت وشربت أكثر من اللازم.

ـ وضعوا قدمه في الجبس، فرفض أن ينام أو أن يستخدم عكازاً، أو أن يمتنع عن مواعيده وسهراته. فكان يذهب إلى الغداء قدماً في حذاء، وأخرى في «مشاية».

ـ اسمح لنا يا عميد أن نبحث لك عن فندق آخر ليس فيه درج... فيقول:

ـ لا.. لا تبحثوا لي عن شيء. فانا مرتاح في هذا الفندق وأوراقي وحقائبي فيه (وكان للعميد أكثر من ثلاثين حقيبة جميعها مملوءة بقصاصات ومراجع وأوراق عليها إشارات منه، ولم يكتب شيئاً منها).

ـ ألا تسمح لنا ان نستأجر لك شقة، وسيارة، وسائقاً وطبّاخاً يا عميد، ففي ذلك راحة لك.

فيقول:

ـ لا.. سأبقى في الفندق كما كنت، فلا تزعجوا أنفسكم.

وفي رأيي الخاص، وأنا أزعم أنني أعرفه بعض الشيء، أن العميد لم ينتحر، ولا هو أراد ما حدث له، ولكنه لم يكن يمانع في ميتة سريعة من دون ألم. وكثيراً ما كان يقول لنا:

ـ لا أريد أن أموت على فراش المرض. فإذا حدث أن مرضت وقطع الأطباء الأمل مني، فسوف انتحر حتماً. واذا كان الله سيرحمني فليبعث لي بميتة سريعة: جلطة في الدماغ، أو سكتة في القلب. أو رصاصة.

وحيداً عاش، وسرّه في صدره. وعندما توفاه الله، أدرك الناس كم هو هذا العميد عظيم.. فالعظماء فقط يحاطون بآلاف المحبين في ساعات الوداع الأخير.

لكنني أتساءل اليوم وأنا أكتب هذه الكلمات:

ـ هل كان العميد محبوباً من الآخرين؟

ـ هل كان محبوباً من أهل بيته؟

ـ هل كان محبوباً ومحترماً من أعضاء حزبه؟.. وخصوصاً على مستوى القيادة واللجنة المركزية للحزب؟

من الآخرين؟.. نعم. كل الآخرين كانوا يحبونه. والذين من أخصامه لم يكونوا على ودّ معه... كانوا بالتأكيد، يحفظون له الكثير من الاحترام والتقدير.

من أهل بيته؟.. لا أستطيع أن أقول نعم، ولا أقول لا.. فأنا لا أعرفهم جميعاً. وما أعرفه أن العميد لم يكن في السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته يرى أقرباءه. وشقيقه وابناءهم أكثر من مرة كل ثلاث أو أربع سنوات. فالعميد في باريس والأقرباء على آلاف الكيلومترات منه والزيارة كانت همّاً في حد ذاته.

من اعضاء حزبه؟. نعم.. كان محبوباً جداً

أما أعضاء القيادة، فلا أستطيع أن أضعهم في ذمتي.

وأنا أسوق هذه الأسئلة التي في غير محلها، لأنني صُدمت وصدم جميع اصدقائه (خارج الحزب) عندما علمنا أن الذين تكفلوا بدفنه ونفقاته، ونهضوا بأعبائه في بيروت، هم مجموعة من الأصدقاء، وليسوا أهله ولا حزبه:

- زينة الكنيسة
- ترتيب بيت الفقيد
- شراء الورد
- تنظيف المقبرة

وقد حزّ في قلبي أن أحد الأصدقاء أخبرني أنه تسلَّم فاتورة من إحدى الجهات دفع بموجبها حوالى مائتي دولار. ولما سأل عن السبب قيل له:

ـ إنها ثمن ورد وترتيبات دفن المرحوم ريمون اده وكان طبيعياً لهذا الصديق أن يدفع هو وعشرون آخرون غيره، ومن بينهم طبيب صديق مشهور في بيروت، تكاليف تجهيزات الساعات الأخيرة. لكن من غير الطبيعي أن ينتهي موت العميد ريمون اده بهذا الشكل.

فلا هو بحاجة إلى التبرع،

ولا العائلة فقيرة،

ولا الحزب خالٍ من صندوق توفير، بثلاثة آلاف دولار فقط.

وفي وقت لاحق، وفي اليوم السابع والثلاثين على وفاته قامت جنان محمصاني، زوجة المحامي الدكتور غالب محمصاني، وهي وزوجها من اقرب اصدقاء العميد، بزيارة خاصة لغبطة البطريرك الماروني نصرالله صفير. وبأمانة الصديق الوفي، شكت لغبطته الأخطاء الفاحشة التي ارتكبت بحق العميد من داخل حلقته الضيقة.

ـ فالتبرع لم يكن له لزوم يا سيدنا لأنه أعطى انطباعاً سيئاً جداً جداً. وليس بإمكاننا أن نصدق أن عائلة اده، أو حزب إده ليس في حوزتهم ثلاثة آلاف دولار.

ـ وبيت العميد لم يكن جاهزاً الجهوزية اللازمة لاستقبال جثمانه.

ـ ويؤسفني أن أبلغك يا صاحب الغبطة، ان اثنين فقط سهرا الى جانب جثمانه ليلة وصوله إلى بيروت قبل دفنه. وهما سيدتان وأنا واحدة منهما والثانية هي شانتال أرملة المرحوم جوزف سكاف.

ـ ومن المؤسف يا صاحب الغبطة أن الغرفة التي حوت جثمانه لم تكن نظيفة كما يجب، ولا مهيأة كما يجب، على رغم أنها في مبنى خاص بعائلة الفقيد داخل المقبرة الكبيرة.

سامحهم الله. وسامحنا جميعاً. ما أَعَقَّ ابن آدم، وأقل إيمانه، وما أبعده عن الحب الحقيقي.

المحتويات

ليس هذا الكتاب كتاب مذكرات بالمعنى المعروف للمذكرات، ولا كتاباً يَبُوحُ بالأسرار. إنه في مَنْزِلةٍ بين المنزلتين:

هو مذكّرات بمعنى: أنه سردٌ لأحداثٍ وقعت، فحفظتها ذاكرتي، ولَقِفَتْها دفاتري الصغيرة، ووعدت نفسي بالعودة إليها.

وهو أسرار بمعنى: أنه يتحدث عن وقائع وأعمال كانت، في وقت من الأوقات، أسراراً لا تقبل البوح.

في الكتاب أخبارٌ، ومحطّات، ولقاءات، وذكريات مشوّقة، تمحورت كلُّها حول زعماءَ سياسيِّين كلّفوني إعداد مذكّراتهم الشخصية، أو كتابتَها، أو مراجعتَها، فانطلقت من ذلك لأسْرُد قصصاً ومحطات وأخباراً بعضُها مجهول، وبعضها معلوم، كنت فيها طرفاً مقبولاً في حياة الزعماء الثلاثة الذين تناولهم هذا الكتاب:

* الرئيس الياس سركيس، الذي انتخب رئيساً للبلاد في ظرف حالك، فقَبِل المهمة، وأقبلَ عليها: لأنه أراد وقفاً فورياً للنزيف، «والبَدْءَ بالعمل يداً واحدةً وقلباً واحداً، لإعادة بناء لبنان».

* الرئيس صائب سلام، الزعيم اللبناني المُجَلّي، والسياسي الشديد المِراس، وأحد رجال الاستقلال، واللبناني العربي الذي لم يتعصّب لمذهب، ولم يَنْحَزْ لطائفة، فرفع شعارين بنّاءين من شأنهما، إذا طُبِّقا، أن يُشكّلا أساساً لقيامة لبنان: «التفهّم والتفاهم»، و«لبنانٌ واحدٌ لا لبنانان».

* العميد ريمون إده، الزعيم السياسي المميز، والفارس الذي لم يترجَّل، والأمير البرلماني الذي مثّل اللبنانيين خير تمثيل، فكانت له، في عالم التشريع، إنجازاتٌ وإنجازات، أشهرها قانون إعدام القاتل الذي ساهم في إطفاء فتنة الـ ١٩٥٨، وقانون سرِّيّة المصارف الذي يتميز به لبنان.

شكري نصرالله